بلاغة الصورة

الغرسة 93
يونيو - يوليو 2018

الهوية
ALHAWIYA

حديث أندونيسيا

الهوية العربية للقدس

مراهقو الحداثة

من أسوار الذات

قلق الهويات المركبة

ISSN: 1728 - 5135

الديوان الأميري
مكتب الشهيد

الهوية

مجلة دورية تُعنى بتأصيل الهوية الوطنية

الغرسة 93
يونيو - يوليو 2018
تصدر عن الديوان الأميري - مكتب الشهيد
دولة الكويت

بصمتنا 2

السور الرابع 16

من شهداء العروبة 21

من شهداء الإسلام 24

من رموز الحرية 27

رئيسة التحرير
فاطمة أحمد الأمير

مديرة التحرير
فايزة مانع المانع

سكرتير التحرير
عماد منصور المنصور

المراسلات باسم رئيس التحرير
مكتب الشهيد - الديوان الأميري
ضاحية مبارك العبدالله - قطعة ٧ - شارع ٥
ص.ب: ٢٨٧١٧ الصفاة ١٣١٥٨ دولة الكويت
بدالة: ١٨٨٨١٠١ - داخلي : ٣٠٨٤
مباشر : ٢٥٣٧٢٠٨٤
فاكس: ٢٥٣٧٥٤٨٩
www.martyr.com.kw

إخراج وتنفيذ وطباعة
النظائر
AL-NAZAER

صورة الغلاف:
قرية صباح الأحمد
في أندونيسيا

أوبريت 4

تاريـــخ 31

رحلـــة 10

آثـــار 36

متابعة 14

الصباح 1718 – 2018 44

قاموس الهوية 74

التَّعدد اللُّغوي والهوية

بقلم : فايزة مانع المانع
fayzaalmane@yahoo.com

اللغة هي الأساس الصلد للهوية، بل قد تكون عنوانها والمؤشر عليها، على افتراض أن الأفراد يجمعهم لسان واحد ولغة واحدة تحوي تراثهم وقيمهم احتواء الإطار للصورة أو الوعاء للماء، ولكن المتأمل لحال بعض الأفراد والمجتمعات يدرك تعدد الألسن وتنوع اللغات ضمن الوطن الواحد، بل إن دساتير بعض الدول تقرر أن للدولة أكثر من لغة رسمية وتعترف بمجموعة لغات يتم تداولها والتعامل بها وتدريسها، وتعتبر الهند المثل الفاقع للتعدد اللغوي، فدستورها يعترف باثنتين وعشرين لغة رسمية، وما لا يقل عن 65 % من الشعب الهندي يتحدث بلغتين أو ثلاث لغات، كما أن إحدى وثلاثين لغة في الهند مسجلة كلغات معترف بها، غير أن المدهش في الأمر أن الشعب الهندي بمجموع أعراقه ودياناته وطوائفه يمتلك 880 لغة كلها تتفاعل بتناغم غريب لصياغة شعب واحد بهوية هندية وطنية واحدة في ظاهرة يرونها مألوفة وغير معزولة عن طبيعة المجتمع الهندي، وهذا مما يستدعي التساؤل عن مدى تأثير تعدد اللغات في صياغة المجتمعات وكيف تمكن الدستور الهندي من تخليق شعب واحد بمكونات قومية وإثنية ولغوية ودينية متعددة تحت الراية الهندية العملاقة في تجاوز مبهر للاختلافات وتكريس خلّاق للتنوعات، وعلى النقيض من الهند نجد كيانا « كدولة الكيان الصهيوني » التي احتاجت إلى بعث لغة ميتة منذ 1600 عام كي تصيغ بها هوية وطنية تخصها، وتُكرس بها تاريخاً

موغلاً في القِدَم وتميز حروفاً ومفردات من بُطُون المخطوطات الغائرة في جوف الماضي على يد إليعازر بن يهودا ليصنع من لغة مندثرة قواميسَ في مجلدات بلغت تسعة على مدى أربعين عاما ليحيوا بذلك اللغة العبرية، ويشترطوا على أي يهودي يرغب في الهجرة والعيش في دولتهم إتقان لغتهم التي أخرجوها من مدافنها.

واليابان أيضا قد تُعطي نموذجا آخر في الحرص على اللغة القومية فعند إقرار دستورهم العام 1947 كان الإصرار والتأكيد على خصوصية الشعب الياباني ونقاوة العرق وفرادة لغته وحماية التراث الياباني والذي لا تشاركهم فيه أية قومية تعيش معهم على أرض اليابان كالأقليات الكورية والصينية وشعب الإنيو ممن لا يزالون يعانون من مشكلة الاندماج الكامل في المجتمع الياباني.

إن الثورة الاتصالية غير المسبوقة في التاريخ البشري أدت إلى ثورة لغوية فها نحن أولاء نتابع مدارس ثنائية اللغة ومتعددة اللغات وكليات الألسن، وتَسابُقاً لتعلم لغة الآخر هذا غير النظريات اللغوية المتعددة وربط اللغة بوظائف الدماغ وقدرات النطق والسمع وسبر التاريخ اللغوي للإنسان، والبحث عن الجذر المشترك للغات ذلك الحلم البعيد أمام تنوع لغوي يقود لتنوع هوياتي يتجاور ويتداخل ولا يندمج، فالإنسان بحسب « ليو فايسبيرغر، Leo Weisgerber» خُلق بطبعه ليكون أُحادي اللغة، كما أن الكفاءات اللغوية تلك القادرة على الاستخدام الإبداعي لأكثر من لغة بالقدر نفسه الذي تستخدم به لغتها الأم بدا ظاهرة لها دلالة ومثلها العديد من الأدباء والشعراء ممن يؤلفون بغير لغتهم

بالرغم من تحذير بعض الاختصاصيين من تدنى المستوى مما قد يؤدي على المدى البعيد إلى فقدان الأصالة بالرغم من وجود عدد من الأدباء والمفكرين العرب ممن أبدعوا بلغات أجنبية وخاصة في المغرب العربي ولبنان ولكنهم يظلون الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ولا سيما أن أمثال هؤلاء المبدعين كانوا نتاج تعليم أجنبي أو زواج مختلط أو من الدول العربية التي جَهد الاستعمار في فرنستها، ومهما يقال عن التعدد اللغوي فإن حبس اللسان في لغة واحدة قد لا يكون مفيدا وبالقدر نفسه فإن مزاحمة اللغة الأم أو إقصاءها قد يكون قاتلا، وتبقى اللغة عقلاً وفكراً وتراثاً وملامحَ وشعوراً واتصالاً وتواصلاً وبصمة خاصة بكل أمة، وتظل الهوية في أبهى تجلياتها دلالة لغوية.

أوبريت عجيبة هالديرة

سفينة الوطن يقودها ربان حكيم

مزج الغناء الجميل بالحركات الإيقاعية الموزونة مع الملابس الزاهية في استلهام للتراث، والتعبير الفني المرهف عن الماضي.

على مدار نحو ساعتين كاملتين، عاشت الكويت في ابريل الماضي لحظات من الماضي الجميل والحاضر المتميز والمستقبل الواعد من خلال لوحات وطنية باهرة تضمنها (أوبريت عجيبة هالديرة) رسمها طلبة الكويت من الفتيان والفتيات، على إيقاع كلمات وطنية ذات معان وطنية معبرة.

احتفاء بالفن الجميل

وتقدم حضور الأوبريت صاحب السمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح يرافقه سمو ولي العهد الشيخ نواف الأحمد الجابر الصباح، وحضره رئيس مجلس الأمة مرزوق الغانم وسمو رئيس مجلس الوزراء الشيخ جابر المبارك الحمد الصباح والوزراء وكبار المسؤولين في البلاد.

وكان لافتا في الأوبريت تلك اللوحات الجميلة التي مزجت بين الغناء الجميل والحركات الإيقاعية الموزونة من زهور الكويت وشبابها وشاباتها الذين ظهروا بملابس زاهية الألوان مؤدين فقرات متنوعة تعبر عن تراث الكويت الزاهي وموروثها الشعبي الثري.

وركزت بعض اللوحات على مسيرة الكويت وتاريخها الحافل بمواقف الخير والعطاء التي جبل عليها أهلها وعاشوها واقعا حيا وانتقلت من الأجداد والآباء إلى الأحفاد عبر السنين، مع استمرار مدّ يد الخير وانتشارها حاليا في شتى بقاع العالم حتى أضحت الكويت علامة بارزة في العطاء، فمنحتها الأمم المتحدة لقب (مركز العمل الإنساني في العالم)، فيما منحت سمو أمير البلاد لقب (قائد العمل الإنساني في العالم).

ونعمَ المُكرّم

وعبرت لوحات أخرى عن الدلائل المختلفة حول تضامن الكويتيين وتآزرهم في مواجهة جميع التحديات التي واجهها مجتمعهم الفتي، والمحن التي عاشتها دولتهم الصغيرة في مراحل عدة، فضلا عن تكاتفهم حول أمرائهم من آل الصباح الكرام طوال العقود الماضية، ومبايعتهم لهم لقيادة دفة سفينة الوطن التي تضم جميع أبنائه نحو الاستقرار والأمن والسؤدد والأمان.

وأشارت بعض اللوحات إلى الازدهار الذي عاشته الكويت بعد أن حباها المولى تعالى بنعمة النفط، والنهضة التي شهدتها في جمع المجالات منذ منتصف القرن العشرين، والمعالم العمرانية والمؤسسات الحضارية والانفتاح الكبير الذي تميزت به، فكانت أبوابها مشرعة لجميع الجنسيات الذين أسهموا في تطور الكويت.

لوحات فنية متنوعة تحاكي القيم الوطنية الأصيلة.

نخبة من الشعراء والملحنين والمطربين في تناغم فني مميز تحت إشراف الشيخة أمثال الأحمد الجابر الصباح.

وأشارت اللوحات إلى توافد أجناس مختلفة من البشر إلى أرض الوطن المعطاء، فتمتعوا على أرضها بنعمة الحرية والأمان واندمجوا في النسيج الكويتي، وألّف الله عز وجل بين قلوبهم فأصبحوا إخوة متحابين، وأضحوا جميعاً شركاء في بناء الوطن الغالي، فأثبت التاريخ أن جميع من على الكويت جسد واحد في سفينة واحدة تحت راية قائدها الحكيم راعي نهضتها ومسيرتها وولي عهده الأمين.

وحظي الأوبريت بإشراف مباشر من الشيخة أمثال الأحمد الجابر الصباح، وأخرجه بصورته المتميزة الدكتور علي حسن فيما تولى التوزيع الموسيقي ربيع صيداوي، وتولى ألحانه عبد الله القعود وأحمد حمدان وفهد الناصر وحمد القطان، وكتب قصائده الشعراء عبد اللطيف البناي وصالح مدوه ساهر وأحمد الشرقاوي وماجد المهنا ومنصور الواوان وسعد المسلم، في حين أدى القصائد المطربون نبيل شعيل وفواز الرجيب ومشاري العوضي وأحمد الرويشد وعبد الله بن حسين وسلطان مفتاح وجمال الدريع.

بِذارُ الشهداء .. يَرويه أبناؤهم ..

بقلم :
فاطمة أحمد الأمير

الوكيل بالديوان الأميري
مدير عام مكتب الشهيد

في أندونيسيا ؛ في هذا الأرخبيل الجميل المكون من آلاف الجزر في جنوب شرق آسيا كانت وجهتنا مع أبنائنا من ذوي الشهداء في رحلة لأكبر بلد إسلامي بتعداد سكاني يصل وفق آخر إحصاء إلى 238 مليون نسمة غالبيتهم من المسلمين ممن اعتنقوا الدين الإسلامي مع حركة الفتوحات الإسلامية ومع التجار المسلمين الذين عبروا كل هذه المساحات الشاسعة وركزوا راية الإسلام عالية خفاقة كديانة رئيسة لأغلب سكان أندونيسيا مع تنوع عرقي وديني يثري أندونيسيا رغم فقرها ويزيدها ألقاً رغم احتياجاتها فكان شعارهم المعتمد والمؤسس على قاعدة « الوحدة في التنوع» مثالا لبلد كبير يسعى لتطوير اقتصادياته وبناء ذاته.

في أندونيسيا لأبنائنا أثر بالغ الخصوصية وبالغ الإنسانية ، هناك أرتأينا أن يكون لشهدائنا صدقة جارية يستمر خيرها لهم ما دامت الحياة ، هناك قرية كاملة باسم أمير الإنسانية سمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح حفظه الله ورعاه ، ومركز لشهداء الكويت يضم مسجدا ودارا للأيتام ، ومقرا لحفظ القرآن الكريم وقاعة للمحاضرات ،

هناك استطعنا بحس شهدائنا أن نعبر عن أشواقنا لهم وامتناننا لتضحياتهم واعتزازنا ببطولاتهم وفخرنا بكل ما قدموه لوطنهم ،

في أندونيسيا كنّا نتحرك مع أبناء الشهداء مترافقين مع أرواح ذويهم ساعين لتأكيد روح الإسلام التى ترى التراحم جوهر الدين والتكافل بين المسلمين غاية القيم، والنُبل والمروءة جواهر تخص ذويهم ميراثا للأخلاق العالية التي يتحلون بها .

إننا نسعى في مكتب الشهيد وبمعية أبناء الشهداء إلى أمثل تكريس لمعاني الشهادة وإلى استنباط أثمن الرؤى للتضحيات ، ولتعزيز روح البذل والعمل والكفاءة كمنهاج حياة .

إن ربط منظومة القيم العالية التي نتحرك وفقها في مكتب الشهيد ضمن رسالتنا الموثقة تستدعي منا فتح آفاق واسعة

وارتياد فضاءات جديدة لنتمكن من تأكيد الثابت من عقيدتنا بالضرورة من رحمة وتعاون وتلاحم وعزة وإيثار وما ننجزه على أرض الواقع ونشيده من مشاريع وبرامج تخليدا للشهداء وإذكاءً لروح البطولة وإيقادا لشعلة الحماس .

تفنى الرسوم ولا تفنى المعاني ، وتذبل الأغصان ولا تندثر البذور ، وتتوارى الشمس لتشرق ، وتأفل النجوم لتتألق ، وهكذا دورة الحياة تصنع بالعزم الإرادة وتخلق بالمحبة الحياة ، ويستمر أبناء الشهداء يَرَوْون البذرة ويصنعون المستقبل . وكلنا ثقة بهم وبما ينجزون.

إطلاق بالونات حاملة صور شهداء الكويت بقرية صباح الأحمد

حديث أندونيسيا

سارة بوحمدي
ابنة الشهيدة فاطمة العصفور

يتلاعب بها الهواء وكأنه يستودعها سرا ما!
بالونات حمراء وخضراء وبيضاء وسوداء بألوان راية الوطن الذي تحتضنه قلوبنا، كانت تحلق عاليا حاملة معها صورا لوجوه مألوفة نعرفها وتعرفنا، ولكنها هذه المرة كانت تصعد وتصعد إلى علو شاهق وكأنها ألفت السموق والرفعة، وكأنها تقول لنا إنه مكاني ؛ حيث تكون القمم الشاهقة المتجهة دوما إلى أعلى ذرى الشرف والسمو...
إنهم شهداء الوطن آباؤنا وأمهاتنا يتراءون لنا عبر الأفق، ويلقون علينا رذاذ الحب والشوق وينثرون في دربنا أكاليل الكرامة والمجد..

في «باندونج» إحدى مناطق أندونيسيا كان لنا موعد لا ينسى أبدا، يوم افتتاح قرية صباح الأحمد للأيتام حيث استقبلنا أهالي المنطقة بحفاوة بالغة وهم يشيرون للبالونات الملونة قائلين إنهم هناك ينظرون إلينا ويباركون خطواتنا ويبشرون بأيادي الخيرين التي جاءت لتوقع بَصمتها أعمالاً للخير خالدة، تقدمها دولة الكويت المباركة تلك الصور المحلّقة تنتمي إليكم وتبارك كل مشاريعكم الإنسانية المؤثرة، وفي نفس القرية كانت لنا جولات حيث التقينا بالأيتام وأسرهم وتجولنا بين مساكنهم وفصولهم الدراسية، وقمنا بتوزيع أكياس الأرز والحلويات على أطفالهم كما أوصلنا برادات الماء من ثمرات تبرع أهل الكويت الذين جبلوا على الْبر وحب الخير والعطاء الثرّ.

فعاليات متنوعة

إن التخطيط والتنظيم صنو نجاح أي عمل ومنذ بدء رحلة مكتب الشهيد إلى جمهورية أندونيسيا والتي ضمت إلى جانب القائمين على المكتب وعلى رأسهم الوكيل في الديوان الأميري ومدير عام المكتب فاطمة أحمد الأمير نخبة من أبناء الشهداء المميزين، ووفق الخطة تم تقسيم الوفد المشارك إلى أربع فرق إداري وإعلامي وفريق لاستقبال الضيوف وآخر لتنظيم الأنشطة الثقافية، وأدت هذه الطريقة التنظيمية إلى نجاح كل

نخبة من أبناء الشهداء المميزين في رحلة لأندونيسيا استغرقت أحد عشر يوما.

افتتاح سقيا ماء

مشاركة أبناء الشهداء بحفل العيد الوطني - قرية صباح الاحمد

أبناء الشهداء في احتفالية العيد الوطني بأندونيسيا

فعاليات الرحلة بدءا بالمعرض بأجنحته المتعددة وانتهاءً بالعرض الفني الوطني وما صاحبه من فقرات موسيقية وغنائية ورقصات شعبية قدمتها مجموعة من الأطفال الأندونسيين بالملابس الوطنية الكويتية وبالأثواب المزينة بعلم دولة الكويت.

لا بد من «بالي»

«لا بد من صنعا وإن طال السفر»، أيضا لا بد من «بالي» ما دمت زائرا لأندونيسيا، فهناك الطبيعة الخلابة تستعرض مفاتنها بلا هوادة وفق الاستقبال الحفيّ الذي يبهج النفس ويشيع الأنس ويزيل أكدار التنقل

توزيع المؤن الغذائية من قبل بنات احد الشهداء

مريم بوحمدي ابنة الشهيدة فاطمة العصفور وتوزيع المؤن الغذائية على أسرٍ أندونيسية

في قرية صباح الأحمد مع أسرة أندونيسية

قرية صباح الأحمد

مسؤولو مكتب الشهيد و أبناء الشهداء مع السفير الكويتي باحتفالية العيد الوطني

مسؤولو مكتب الشهيد مع السفيرين الإماراتي و العماني بحفل العيد الوطني

رحلة أبناء الشهداء لعمان

مع بنات الشهداء احتفالا بالعيد الوطني بالسفارة الكويتية

وتعب الأسفار، وهناك تنتشر مزارع البن برائحته إذ يعبق المكان تلك الرائحة العابرة للأذواق الموحدة لحاسة الشم لدى البشر وكأنها ماركة عالمية لهذا المشروب «العولمي» وهناك تجولنا بين مزارعه وتعرفنا أنواعه وكيفية الاستخراج والإعداد، كما أُعد لنا في بالي برنامج فني حافل قدمته فرقة أندونيسية بنكهة خليجية مميزة، وخُتمت رحلتنا مرورا ببانكوك فسلطنة عُمان ثم العودة إلى دولتنا الحبيبة الكويت وفي جُعبتنا ذخيرة من الحب وفضاءات امتنان شاسعة لمكتب الشهيد وللقائمين عليه.

جداريات الشهداء
بلاغة الصورة

«الجداريات» في العدان ومشرف وكيفان والجهراء، وما زال العمل جاريا

محافظ العاصمة الفريق المتقاعد ثابت المهنا يتوسط الحضور

محافظ الجهراء ومدير إدارة مكتب المدير العام ومدير إدارة التخليد بالإنابة

جدارية الشهداء

في بادرة لاستكمال أحد أهم أهداف مكتب الشهيد في سبيل تكريم وتخليد شهدائنا الأبرار انطلقت مطلع شهر مارس الماضي سلسلة من أهم المشاريع وهي (جدارية صور الشهداء) وابتدأت الرحلة بافتتاح الجداريات واحدة تلو الأخرى بمحافظات الكويت تباعاً بدءاً بمحافظة مبارك الكبير في حديقة منطقة العدان بحضور ورعاية المحافظ الفريق المتقاعد أحمد الرجيب كما تلتها جدارية محافظة حولي في حديقة منطقة مشرف تحت رعاية وحضور محافظها الفريق المتقاعد الشيخ أحمد النواف، ومحافظة العاصمة في حديقة (الأندلس) بمنطقة كيفان بحضور ورعاية الفريق المتقاعد ثابت المهنا محافظ العاصمة، وأخيراً وليس آخراً محافظة الجهراء في حديقة (الجهراء) بمنطقة القصر تحت رعاية وحضور محافظها الفريق المتقاعد فهد الأمير.

فاطمة الأمير: مشروع جداريات الشهداء سيعُم جميع محافظات الكويت مع التطوير والتحسين

توجيه الأجيال لمعاني البطولة والتضحية

تكريم محافظ حولي الفريق المتقاعد الشيخ أحمد النواف من قبل مدير عام مكتب الشهيد

لقطة جماعية لأسرة مكتب الشهيد و السادة من محافظة مبارك الكبير

حديقة الأندلس بمنطقة كيفان

وقد قالت الوكيل بالديوان الأميري مدير عام مكتب تكريم الشهداء ورعاية أسرهم فاطمة أحمد الأمير إن فكرة جداريات الشهداء، قد لاقت إقبالاً ونجاحاً كبيراً خاصة عندما نصبت في حديقة الشهيد لأول مرة، ومنها انطلقت فكرة إنشائها في حدائق المحافظات الست، وقالت بأن الجهود أتت بمساعدة الجهات الحكومية لإبراز دور الشهداء وغرس الوطنية في بنات وأبناء هذا الوطن المعطاء والذي قدم كوكبة من الشهداء والشهيدات الذين سطروا ملاحم في حب الوطن، وبينت بأن العمل متواصل لإتمام مشروع الجداريات في باقي محافظات الكويت كما أن التطوير سيؤخذ بعين الاعتبار في المراحل المقبلة.

وجداريات الشهداء علامة فارقة للأجيال القادمة حتى ترسخ في أذهانهم قيمة التضحية، بالشهادة وحب الوطن إنها قيم كبيرة تحملها لوحة رسمت بدماء أبناء الكويت الأوفياء، وعلى رسالة وهدف دائما (لن ننسى شهداءنا).

جدارية حديقة الجهراء بمنطقة القصر

وبحديقة الأندلس بمنطقة كيفان

إبنة شهيد.. وهذا أبوي

أسرة آل ساير الشمري
موعدهم الجنة

سعد الشمري وحماد الشمري على خطى «أبيهما»

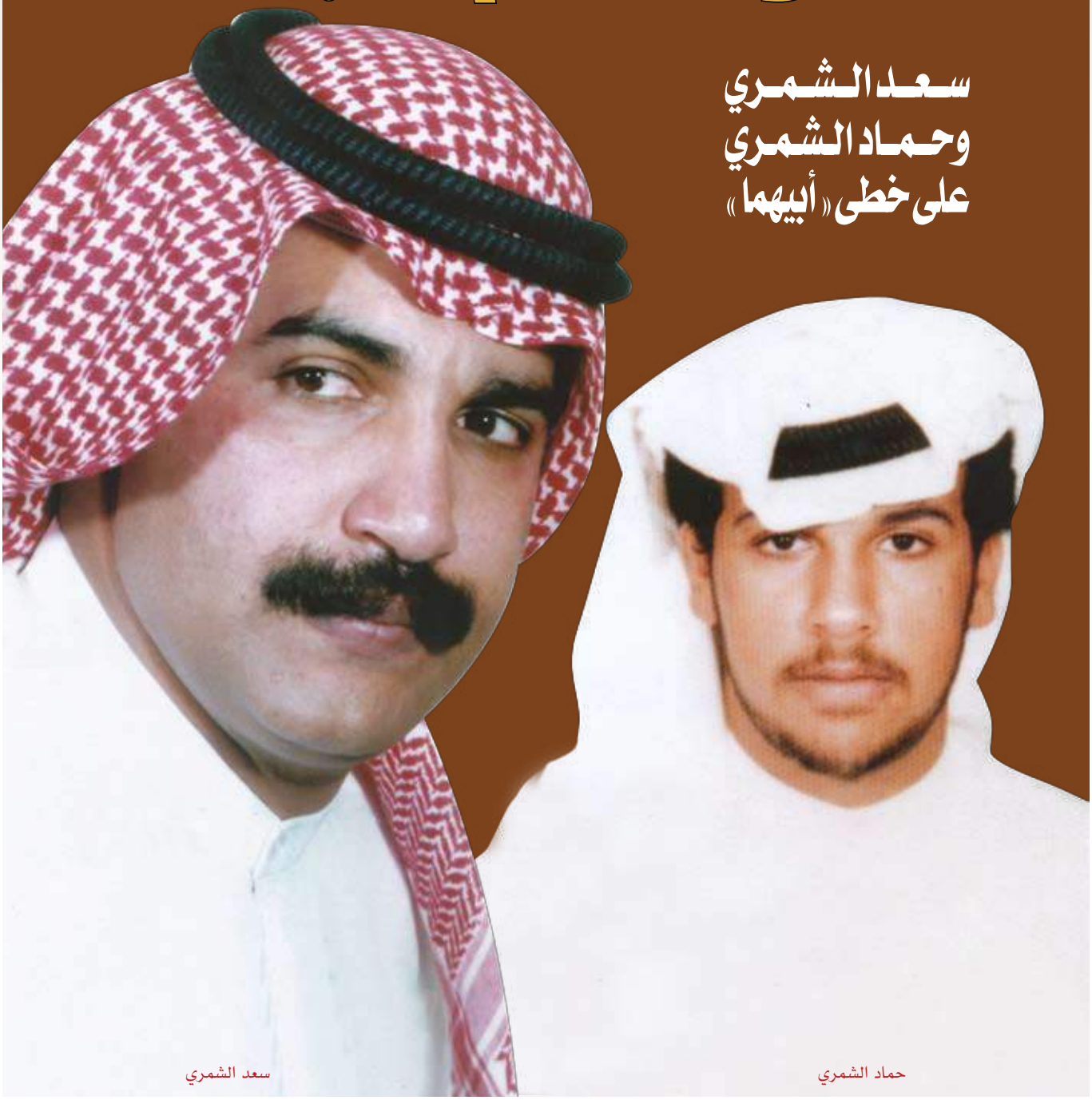

سعد الشمري

حماد الشمري

كما ارتقى ساير سعد الشمري في المواجهة بين الحق والباطل، واختار أعلى ذرى المجد في حرب أكتوبر لعام 1973، وهو يدافع عن مصر العروبة ضد القوات الاسرائيلية، سلك ولداه سعد وحماد نفس الطريق والتحقا بمواكب الشهداء الصاعدة نحو منابع النور ووثقا كنجوم زاهرة في سجلات الشرف الوطني، ووضعا بذلك أسرة ساير سعد الشمري قلادة مشعة على جبين الوطن.

عُرف الشهيد سعد بالشجاعة والجرأة والإقدام، فلم يكن يتردد في اغتيال الجنود العراقيين ونصب الكمائن لهم وجمع وتخزين الأسلحة.

غرر سعد وشقيقه حماد ببضعة جنود عراقيين بدعوتهم للعشاء ثم أطلقا النار عليهم

غضب وصمود

لقد أخذت عمليات المقاومة أساليب متعددة وكان الصمود بدايتها ومنذ اليوم الأول رفضا الخروج من الوطن، وأصرا على الصمود ولم يلحقا شقيقهما عواد الذي اضطر إلى المغادرة خوفا على والدته المسنة وأسرته من بطش المحتل.

ومنذ الساعات الأولى للاجتياح العراقي سيطرت على الشهيد سعد مشاعر الغضب والثورة، ولم تفلح كل المحاولات التي بذلها أهله ورفاقه في التخفيف من ثورته وحماسه واندفاعه، فقد كان يريد القيام بعمل ما وبسرعة ضد المحتل الغادر، ولذلك أيقن كل من كان معه أنه لن يستسلم أبدا.

جمع السلاح:

لقد قام الشهيد سعد رحمه الله بجمع السلاح الذي لا يمكن أن تصبح المقاومة فعالة بدونه، فتطوع في مخفر خيطان وتوجه مع شقيقه الشهيد حماد رحمه الله إلى أحد مخازن وزارة الداخلية وجمعا بعض الأسلحة كما تعاونا مع أحد رفاقهما في جمع المزيد من الأسلحة من المخزن المذكور قبل أن تصل إليه القوات العراقية، ونقلوا تلك الأسلحة إلى منزل الشهيد سعد وكانت عبارة عن رشاشات وبنادق وذخائر وتم تخزينها في بالوعة المنزل، كما قام الشهيد سعد بحفظ بعض قطع السلاح عند أحد أقربائه، لكنه استردها بعد يومين، ونقلها بالتعاون معه إلى منزله، وطلب من قريبه أن يوفر له مجموعة من الشباب وأن يشكل معهم خلية للمقاومة بحيث يكون قريبه رئيسهم، وكان الشهيد يريد تكوين بعض الخلايا بحيث تصبح تابعة للمجموعة التي كان الشهيد أحد أفرادها وهي مجموعة أبو أسامة وكانت تضم بعض الشباب الكويتي بالإضافة إلى اثنين من المصريين ومع ذلك فقد كان الشهيد سعد يقوم بالكثير من العمليات الفردية ضد جنود الاحتلال، كما قام بجمع التموين من أحد المخازن في منطقة الشويخ وتوزيعه على الجيران والأسر المحتاجة هذا بالإضافة إلى توزيع الأسلحة علي بعض أهالي المنطقة.

قوة كبيرة من الجنود العراقيين، اقتحمت منزل سعد، واعتقلته وشقيقه حماد وأخضعتهما لتحقيق مطول وتعذيب شديد.

والد الشهيدين سعد وحماد الشمري

النشاط المسلح:

كانت حياة أفراد المقاومة مهددة باستمرار، ولكن الوطن هو الأهم، ولذلك فقد واصل الشهيد سعد مثل الكثير من أبطال المقاومة النشاط ضد الاحتلال، بتنفيذ عدة عمليات مسلحة بالتعاون مع شقيقه حماد وبعض الأصدقاء ومن تلك العمليات ما يلي:

- أطلق الشهيد سعد النار على سيارة أجرة عراقية كانت تقل ثلاثة من العراقيين الذين اعتادوا دخول الكويت للنهب والسلب، وذلك بأن سار خلفهم مع صديقه بسيارتهما، ثم اقتربا من سيارة الأجرة عندما وصلت إلى الشارع المقابل لحديقة خيطان، وبالقرب من السينما اضطر

سائق سيارة الأجرة التخفيف نتيجة لاقتراب سيارة الشهيد سعد منها وبسرعة فائقة عاجلهم الشهيد سعد بإطلاق النار على المقعد الخلفي ثم بسرعة باتجاه السائق، وفرا نحو منزل الشهيد سعد، وأدخلا السيارة، وبعد قليل ذهبا للاستطلاع، فلاحظا وجود سيارة الأجرة في مكان الحادث وبدون الركاب و آثار الدماء واضحة، وتمت هذه العملية منتصف أغسطس.

– أما العملية الأخرى، فقد قام بها الشهيد وأحد أصدقائه حين أوهم الشهيد سعد أحد ضباط العدو وجنوده برغبته منحهم هدية عبارة عن جهاز فيديو واتفق معه على اللقاء خلف سينما خيطان، بالقرب من أحد المطاعم العراقية، فوافق الضابط وحضر مع الجنود في الموعد المحدد، ثم جاء الشهيد سعد بصحبة صديقه وبعد أن أعطاهم جهاز الفيديو اقترب من سيارتهم وبسرعة خاطفة أطلق النار عليهم وكانت مفاجأة بالنسبة لهم، فلم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم بينما استطاع الشهيد وصديقه الفرار بسرعة.

ولا شك أن نجاح الشهيد في هذه العملية الجريئة التي اتسمت بالمواجهة مع أفراد العدو شجعه على الاستمرار، فكان يتحين الفرص، وعندما سنحت له فرصة جديدة لم يتردد في اغتنامها ففي 31 سبتمبر صادف الشهيد مع صديقه ثلاثة من جنود العدو في الفنيطيس كانوا يبحثون عن طعام بعد أن هربوا من الجيش العراقي، واختبأوا في أحد المنازل وهي خاصة لعم الشهيد سعد، ولكن بسبب الجوع اضطروا إلى الخروج

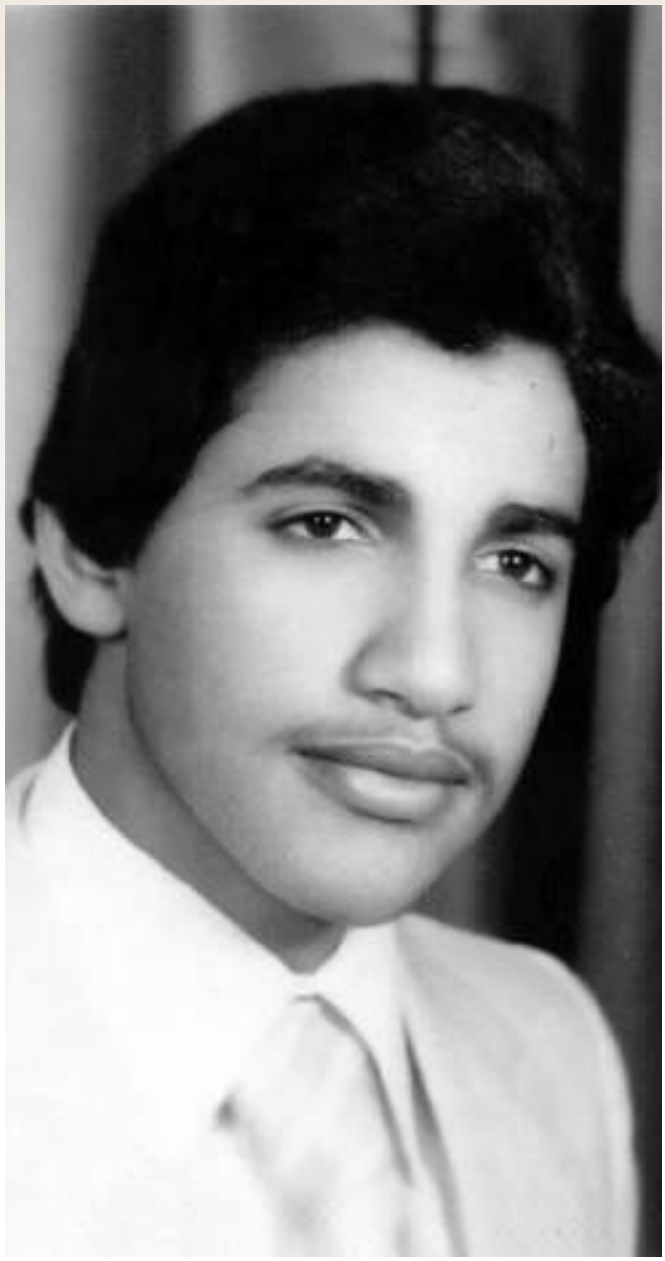

سعد الشمري

بعد إعدام الشهيد سعد وأخيه حماد تم نهب مسكنهما وإشعال النيران فيه والمساكن المجاورة له.

وقالوا لهما إن هناك أربعة من العسكريين يختبئون في أحد المنازل في الفنيطيس، وبعد أن أوصل الشهيد سعد وصديقه الثلاثة إلى «دوار العظام» دوار الأمم المتحدة عرض الشهيد سعد على صديقه فكرة العودة في اليوم التالي إلى الجنود الأربعة لقتلهم، فوافقه وهناك قالا للجنود الذين كان يقودهم ملازم إنهما قد وصلا للتو من السعودية، ويريدان الاستقرار بجوارهما لأن هذا هو منزلهما فاطمأن الجنود لهما، وبعد نصف ساعة عاجلهم الشهيد سعد وأطلق النار عليهم فقتل اثنين منهم، أما الثالث فقد قتله صديقه، بينما نقل الرابع إلى منزل الشهيد سعد وهناك تخلص منه بالقتل بالتعاون مع صديقه حماد.

لقد عرف الشهيد بالشجاعة والجرأة والشهامة، ولم يكن يتردد في حراسة منازل جيرانه والدفاع عنهم، حتى إنه عرض القيام بذلك على أحد الجيران حين قال له:

«ارقد ونم» وسوف أحرس منزلك وأهلك.

– ومن العمليات الجريئة التي قام بها تلك العملية التي تمت في 21 أغسطس حين أطلق النار بالتعاون مع شقيقه الشهيد حماد وأحد الأصدقاء على مبنى قسم التخطيط التابع لوزارة الداخلية في خيطان الجديدة، ذلك المبنى الذي حولته السلطات العراقية إلى سكن لقواتها وأظهر الشهيد شجاعة كبيرة حين أطلق نيران بندقيته الذاتية على الموقع واستطاع الثلاثة الفرار بسرعة

إلى منزل الشهيد سعد، ثم قام الشهيد حماد بإدخال السيارة في واحدة من مدارس المنطقة، وواصل الشهيد نشاطه بعملية جريئة أخرى وهي إطلاق النار على مخفر خيطان في 1سبتمبر فجرا، ومن الواضح أن الهدف من وراء هذا النوع من العمليات هو بث الذعر والخوف في صفوف القوات العراقية الموجودة في المناطق وبين الأهالي.

الاعتقال:

لقد أبلى الشهيد سعد و شقيقه حماد بلاء حسنا خلال شهر أغسطس والأيام الأولي من شهر سبتمبر، وكانا يريدان الاستمرار في هذا النشاط ضد القوات المعتدية، واندفعا بشجاعة واضحة وكان لابد من أخذ الاحتياطات اللازمة خاصة في شهر سبتمبر عندما ازدادت عمليات البطش العراقي وإحكام السيطرة على معظم مناطق الكويت وانتشار أفراد جهاز مخابراته لكن الشهيد سعد رحمه الله لم يتوقف أو يتردد، لذلك رحب بفكرة طرحها عليه صديقه المصري الذي كان يعمل في سوق خيطان، وهو قبول استضافة بعض أفراد العدو من الاستخبارات العراقية في منزله بحجة دعوتهم على العشاء، ومن ثم التخلص منهم، فرحب الشهيد رغم خطورة هذا العمل، خاصة أن زوجته الحامل تقيم معه في المنزل، وحوله منازل مسكونة بأهلها، فتم الاتفاق مع أفراد العدو على الحضور مساء يوم 14 سبتمبر وبالفعل جاءوا في الموعد المحدد وكانوا ستة فأدخلهم الشهيد سعد إلى الديوانية، وبعد أن قام الشهيد سعد بإغلاق الغرفة على زوجته في الدور الثاني، ووضع أفراد العدو أسلحتهم، جلس معهم وشقيقه الشهيد حماد في الديوانية، ثم خرج الشهيد سعد ولحقه الشهيد حماد وأغلقا الباب الرئيسي للمنزل، وفي لحظة خاطفة دخل الشهيد وبدأ إطلاق النار عليهم من سلاحه الرشاش، وفي تلك اللحظات فر المواطن المصري من المنزل إلى سطح المنزل المجاور الخالي من سكانه، حتى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي لكن هناك رواية أخرى تقول إنه اختبأ لمدة يومين في ذلك المنزل، ثم غادره إلى منطقة الرميثية، وبعد أسبوع غادر الكويت إلى مصر أما بالنسبة لساعة وقوع الحادثة فإن وثيقة من الوثائق التي خلفها العدو العراقي تشير إلى أنها وقعت الساعة 2.30 صباح يوم السبت 15 سبتمبر، وبعد أن أتم العملية أسرع الشهيد سعد إلى زوجته وهو يشعر بالفخر والزهو وقال لها «خلصنا، وارتحنا»، وكما تقول زوجته كانت الساعة الحادية عشرة مساء ولم يكن رحمه الله يعلم أنها بداية رحلة العذاب، والخطوة الأولى في طريق الاستشهاد، فقد كانت هناك نقطة تفتيش في منطقة خيطان، وبالتحديد عند بداية الشارع الذي يقع فيه منزل الشهيد سعد، وهي في الوقت نفسه قريبة من منزل مختار خيطان السابق مناحي العصيمي، رحمه الله، حيث اعتادت مجموعة من المواطنين الجلوس على الكراسي الموجودة عند منزل المختار، وكان عدد جنود النقطة

سعد الشمري

يتراوح ما بين ثلاثة وأربعة، وفي تلك الليلة كانوا ثلاثة من الضباط ومجموعة من الجنود وبعد أن أطلق الشهيد سعد النار انطلقت أصوات العيارات النارية من خارج المنزل، فوصلت إلى مسامع الأفراد الذين كانوا يجلسون عند منزل المختار وإلى أفراد نقطة التفتيش وكان الشهيد سعد رحمه الله قد أطلق في البداية طلقات رصاص ثم استخدم سلاح الرشاش، وتراوح عدد الطلقات من ست إلى سبع طلقات، وعندما لاحظ أن بعضهم لايزال على قيد الحياة، استخدم سلاحه الرشاش، ولم يعلم الشهيد أن هناك ضباطا وجنودا بالقرب من المنزل، وهكذا وقعت المأساة حين أثارت هذه الطلقات انتباه وذعر الضباط والجنود والأهالي أيضا، وبسرعة استطاعوا تحديد مصدر تلك الطلقات، وهو منزل الشهيد سعد فأسرعوا إلى سيارتهم، كما طلبوا قوة مساندة من مخفر خيطان، وتم تطويق المنطقة ومداهمة المنزل وتفتيشه، فعثروا على الجثث، فتم اعتقال الشهيد سعد وزوجته وشقيقه الشهيد حماد، ثم تم تفتيش المنازل المجاورة حيث اعتقلوا حامد عبدالزهرة ماشاء الله «المتروك» ومحمد حمود الطواش وعلي نهار ونهار نهار، وجمال محمد خالد الجامري وأنور العصفور الذين كانوا يجلسون في ديوانية أحد المنازل ولم يشتركوا في العملية.

ومنذ اللحظات الأولى للاعتقال بدأ الضرب والركل وفي أثناء تفتيش منزل الشهيد سعد كانوا يضعون زوجته أمامهم لأنهم كانوا يخشون من وجود أفراد للمقاومة في الغرف أو في سطح المنزل ولم تسلم الزوجة من الضرب والتعذيب لكن الذي حفظها أن القوات العراقية عندما داهمت المنزل وجدوها في الغرفة العليا، وقد أغلقها عليها زوجها من الخارج وحاول أحد أفراد المجموعة وهو الشهيد رضا الفرار قبل اعتقاله لكن أفراد القوة العراقية شاهدوه وصرخوا عليه وهددوه بإطلاق النار فاضطر إلى الاستسلام.

في المخفر:

اقتيد كل الشباب إلى مخفر خيطان وهناك تعرضوا للتعذيب الجسدي والنفسي الوحشي، وعمدت سلطات العدو إلى اقتياد زوجة الشهيد سعد في سيارة بمفردها إلى إحدى الديوانيات المجاورة وطلبوا منها أن تشير إلى الأشخاص الذين يتعاونون مع زوجها لكنها أنكرت معرفتها بهم أو علمها بأي شيء.

وفي المخفر حققت السلطات العراقية مع الشبان الذين أنكروا معرفتهم بنشاط الشهيد سعد وشقيقه حماد ومن معهم، لكن بعضهم اضطر بسبب التعذيب المتواصل إلى الأدلاء بمعلومات مفادها أن الشهيد سعد ومن معه كانوا يحتفظون بقطع من الأسلحة كما تشير الوثيقة.

لقد عانى الشهيد سعد وشقيقه من صنوف التعذيب منها مثلا التعذيب بالأسلاك الكهربائية والمطاطية وقد نزفا بغزارة، وكان الجميع في حالة يرثى لها من الإرهاق والألم، وقد شاهدتهما زوجة الشهيد في المخفر وقد تغيرت ملامحهما حتى إنه صعب على أحد معارفهما الذي كان أيضا في المخفر التعرف عليهما بسهولة، وبعد عدة ساعات من التعذيب قررت السلطات العراقية إعدام ستة من الشباب الكويتي، وكان أحد جنود العدو قد قال لجار الشهيد سعد قبل التحقيق معهم لقد قتلوا ستة منا، وسوف نقتل ستة منكم ومما تجدر الإشارة إليه أنه رغم التعذيب الذي تعرض له الشهيد سعد ومن معه فإن سلطات العدو لم تحصل على معلومات عن أفراد المجموعة أو غيرهم من أبطال المقاومة وقد حفظهم الله عز وجل.

الاستشهاد:

عند الساعة الرابعة عصر يوم السبت الموافق 15 سبتمبر 1990، نقلت سلطات الاحتلال الشهيد سعد، وشقيقه حماد، وأربعة من الشبان القريبين من منزل الشهيد سعد، ثم أنزلوهم وربطوا عين زوجة الشهيد سعد وعيون الشهداء وجاءت سيارات عسكرية تحمل مجموعة من الضباط والجنود، ثم تم اقتيادهم وهم في حالة شديدة من الإرهاق، وادخلوهم إلى منزل الشهيد سعد، ثم أخرجوهم منه، وبعد ذلك قامت فرقة الإعدام العراقية بإطلاق النار عليهم: وهم: سعد ساير الشمري، حماد ساير الشمري رضا محمد عراقي مصري حامد عبدالزهرة ما شاء الله محمد حمود الطواش وهكذا غاب الشهيد سعد وشقيقه بعد جهاد متواصل ضد القوات العراقية، وبعد أن أتمت فرقة الإعدام جريمتها، ألقت الجثث في أحد الوانيتات، وبدأت عملية نهب و سرقة منزل الشهيد سعد، وبعد ذلك أشعلت النار فيه وفي بعض البيوت المجاورة الخاصة بالشهداء، وقد استغاث الأهالي بمطافئ الفروانية التي أسرعت لإطفاء النار خوفا من امتدادها إلى البيوت الأخرى، لكن رجال الاستخبارات العراقية منعوا إتمام عملية الإطفاء، فاضطرت سيارات المطافئ إلى العودة، ولكن أقنع أحد الجيران أحد الضباط فوافق على الذهاب معه إلى المطافئ وطلب منهم العودة وبالفعل تم ذلك حيث قاموا بإطفاء الحريق، وحالوا دون امتداد النار إلى المنازل الأخرى أما بالنسبة للجثث فقد حاول أحد أصدقاء الشهيد سعد العثور عليها، فأخبره أحد الشباب الكويتي من العاملين في مستشفى الفروانية أن الجثث بالفعل أحضرت إلى المستشفى لكن بسبب عدم وجود مكان لها في الثلاجة، أعيدت إلى السيارة فتوجه إلى مستشفى مبارك فحصل على الجواب نفسه، أما بالنسبة لمستشفى الصباح، فقد أخبره أحد الشباب الكويتي أن الجثث لم تنقل إلى المستشفى، ويبدو من هذه المعلومات أن القوات العراقية قامت بدفن الجثث في اليوم نفسه.

د. نجاة عبدالقادر الجاسم

(كتاب حيثيات الاستشهاد، ج2 «بتصرف»)

عجز عنه الفرنسيون فاعتقله الإيطاليون وقدموه هدية لهم

محمد الدغباجي .. أسطورة النضال التونسي

عبد الكريم المقداد

يعتبر الشهيد (محمد الدغباجي) من أبرز أعلام النضال الوطني التونسي إبان الاستعمار الفرنسي، حيث أمضى نحو عشر سنوات متواصلة في مقارعة القوات الفرنسية، قتل خلالها العشرات من الجنود والقادة، واغتنم الكثير من الأسلحة والمعدات، وعجز الفرنسيون عن الإيقاع به على الرغم من كثرة الخطط والمحاولات التي باءت بالفشل. والمفارقة أن من أوقع به وأسره هو المستعمر الإيطالي الذي كان يحكم قبضته على ليبيا، والذي قدمه للمستعمر الفرنسي في تونس على طبق من ذهب، ليتم بعدها إعدامه رميا بالرصاص. ومذّاك تحول الدغباجي إلى رمز نضالي ما برح يتغلغل في الوجدان الشعبي جيلا بعد جيل.

ولد البطل التونسي (محمد بن صالح بن زمزم الدغباجي) سنة 1885 في منطقة تدعى (وادي الزيتون) قريبة من بلدة «الحامة» التابعة لولاية (قابس) حاليا. وقد نشأ في وسط أسرة فلاحية تعتمد على تربية الماشية، ولم تتعدّ دراسته حفظ بعض السّور من القرآن الكريم. وقد جعلته بيئته القاسية يعتاد شظف العيش والصبر واحتمال المكاره. ويذكر أنه ينحدر من «قبيلة الخرجة» وهي فخذ من الأفخاذ الأربعة التي تكوّن قبيلة بني زيد.

عجزوا عن اعتقاله فانتقموا من أهله بردم آبارهم وترحيلهم وإجبار الشباب منهم على القتال معهم ضده

ونتيجة للأزمة الاقتصادية الخانقة التي فرضها توالي سنوات الجفاف في بدايات القرن العشرين اضطر أبناء المنطقة إلى الانخراط في صفوف الجيش الفرنسي منجاة من العوز، على الرغم من اكتوائهم بظلم المستعمر الذي ما فتئ يفرض الضرائب المجحفة بحق أهلهم، ويقتل ويسرق مواشيهم. لذلك، وبدفع من الحاجة والحرمان التحق الدغباجي كغيره بالجيش فور طلبه للتجنيد في العام 1907، واستمر فيه حتى أتمّ السّنوات الثلاث المطلوبة، ثم عاد إلى أهله، وتزوج آملا أن يبدأ حياة كريمة وآمنة.

لكن لم يمض من الوقت إلا القليل حتى علق الدغباجي بين مخالب الحاجة والفقر في ظل ظروف اقتصادية عامة

طاحنة. وبعد ثلاث سنوات من المعاناة، لم يجد أمامه من حل إلا العودة إلى الجيش، فرجع إليه سنة 1913 متطوّعا. ومع نشوب الحرب العالميّة الأولى تم إلحاقه بالقوة المرابطة على الحدود التونسيّة – الليبيّة.

في تلك الآونة كان البطل الليبي (خليفة بن عسكر النالوتي) يقاوم الاستعمار الإيطالي لبلاده، وكانت أعداد من التونسيين تجتاز الحدود للانضمام إلى معسكره لمحاربة الإيطاليين والفرنسيين معا. فأمام سيطرة الاستعمار الفرنسي شبه المطلقة على الجنوب التونسي رأت المقاومة التونسية في الأراضي الليبيّة المجاورة جسر امتداد يسهّل عمليات الهجوم على الحاميات الفرنسيّة الحدوديّة، ثم العودة بأمان إلى قواعدها في معسكر النالوتي. لم يكن الدغباجي على اطلاع بما يدور، لكن مهمته على الحدود مكّنته من مواكبة مجمل الأحداث الحاصلة بالمنطقة مباشرة.

نقطة التحول

بدأت الحقائق تتكشف له، فأدرك واقع الذل الذي وضعه في مواجهة أبناء بلده، وما عاد يحتمل تلك الحال، وراح يفكر بالفرار والانتقال إلى الجبهة الأخرى. ولمّا هاجم النالوتي وعدد من التونسيين القوات الفرنسيّة في (حصن ذهيبة) في (تطاوين) في 17 سبتمبر 1915 حاول القائد الفرنسي للحصن أن ينتقم من سكان (وازن) في ليبيا حيث يقيم المقاومون التونسيون. آنذاك وجدها الدغباجي فرصة، ففر مع خمسة من رفاقه والتحق

محمد الدغباجي حاملا أحد الأطفال

بصفوف المقاومة في معسكر النالوتي.

وهكذا بدأت مرحلة جديدة في حياته، فصار يقاتل مع النالوتي ضد الاستعمار الإيطالي حينا، وضد الاستعمار الفرنسي حينا آخر. وشارك في بداية نشاطه مع المجاهدين في مهاجمة الحصون الفرنسيّة على الحدود، لكنه سرعان ما شكل فرقته القتالية الخاصة، وصار يلاحق القوات الفرنسية في الداخل التونسي مستفيدا من طبيعة الجنوب التونسي الوعرة التي تحرم العدو من المناورة. كان ورفاقه يتحصنون في المرتفعات بينما يجعلون العدو في مرمى نارهم في عراء السهل، فيقنصون قواته كقنص الطيور. وإذا ما حاول المستعمر حصارهم يفرون إلى الأراضي الليبية للاحتماء واستعادة النشاط ومداواة الجرحى.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أصدرت السّلطات الفرنسيّة قانونا أعلنت فيه العفو العام عن كلّ المشاركين في حركات التمرّد والعصيان عدا الفارين من الجندية. وعلى الرّغم من ذلك واصل الدغباجي اجتياز الحدود والهجوم على القوات المستعمرة. وقد تمكن في ذلك الوقت من التواصل مع الثائر (البشير بن سديرة الهمّامي)، وهو أيضا من الفارّين من الجندية، فانتقلا معًا منذ بداية 1919 إلى (قابس)، وبدآ مع عدد من المجاهدين معارك ضارية ضد الفرنسيين، كانت أولاها معركة (خنقة عيشة)على الطريق الرابطة بين (قابس) و(قفصة)، وأسفرت عن قتل عدد من الجنود الفرنسيين واغتنام كميات كبيرة من الأسلحة وأربعة من الخيول دون أن يلحق بالثوار أي ضرر.

كان هذا الانتصار مؤشرا لسلسلة من المعارك الأخرى ومن أشهرها معركة (جبل بوهدمة) سنة 1919 التي انتصرا فيها بعد مصادمات دامت ثلاثة أيّام مع جنود الحماية، الذين لاحقوهما حتى موقعي «خلوة بورملي» و«جهة السّقي» (بين قفصة ونفزاوة) لكنهما تمكّنا من الفرار. ومن المعارك التي خاضاها معا معارك (سيدي عيش)، و(جبل العنق)، و(جبل القطار)، و(جبل أولاد بوسلامة)، وآخرها معركة (المحفورة) التي تم اغتيال البشير بن سديرة بعدها غدرا. لكن ذلك لم يقعد الدغباجي عن الجهاد بل واصل هجماته على الفرنسيين.

معركة الزلوزة

لطالما اشتكى أهل (الحامة) من ظلم وحقد القائد الفرنسي المدعو «بولو Polo»، الذي كان يضطهد الناس، ويذيقهم مر العذاب إضافة إلى ابتزازهم بالغرامات المالية بذريعة مطاردة المهربين لمادّة الملح. وقد شاءت الصدف أن التقى الدغباجي في الأول من شهر يناير 1920بهذا القائد عند دوار «الزلوزة» في الجهة الشمالية الغربيّة من (الحامة)، فقتله وثلاثة من أعوانه وجرح عدداً آخر من جنوده. إثر ذلك استشاط الفرنسيون غضبا، وعزموا على الخلاص منه بأي وسيلة، فجنّدوا المئات من الشباب ومنهم من ينتمي لعشيرته وأجبروهم على المشاركة في ملاحقته.

وفي يوم 6 أبريل 1920 كان الدغباجي وجماعته في

منطقة بولاية صفاقس تسمّى (المغذية) فداهمتهم قوّات الأمن ودارت مواجهة أسفرت عن إصابة الدغباجي بجروح نافذة في ذراعه اليمنى. وقد أوشك الفرنسيون على اعتقال الدغباجي في تلك المعركة بعد أن أصيب ونفدت ذخيرة من معه من الثوار، إلا أن أهالي بني زيد من المجندين أبوا أن يسلّموا ابنهم للمستعمر فانتهزوا الفرصة السانحة لتهريبه وأفسحوا له مجال الفرار، فاتّجه نحو الجنوب سالكا سلسلة جبال (مطماطة) باتجاه ليبيا.

إثر ذلك استنفرت القوات الفرنسيّة، وقامت بحملات انتقام رهيبة من عشيرته بني زيد، أسفرت عن ردم الآبار التي كانت تروي الناس والماشية، ونقل الأهالي من ديارهم غصبا مع ماشيتهم، وسجن عدد كبير من الرجال، وجمع معظم النساء في محتشد خصص لهنّ. كما تم إجبار السكان على حمل السلاح وملاحقة المقاومين.

كما حاول الفرنسيون آنذاك استدراج الدغباجي عن طريق عاملهم في تلك المنطقة المدعو عمار بن عبد الله بن سعيد، الذي كان على اتصال بالدغباجي إثر هذه الحادثة بوساطة أقاربه، فطلب منه الرجوع إلى أهله واعدا إيّاه بالعفو، فأجابه برسالة مؤرّخة في 16 فبراير 1920 قائلا: « أنتم تطلبون منا الرجوع إلى ديارنا، لكن.. ألسنا في ديارنا؟ إنه لم يطردنا منها أحد... حركتنا تمتدّ من فاس إلى مصراتة وليس هناك أحد يستطيع إيقافنا، إنّنا رعايا حكومة أقوى من الحكومة التي تأتمرون بأمرها».

صورته على الطابع

طالبوه بتسليم نفسه ووعدوه بالعفو فرد عليهم: حركتنا تمتدّ من فاس إلى مصراتة ولا أحد يستطيع إيقافنا

نصب الدغباجي

الأسر والإعدام

خلال لجوئه إلى ليبيا لتطبيب جراحه أصدرت محكمة فرنسية قرارا بتجريده من أملاكه في تونس، ثم حوكم غيابيا في قضية معركتي (الزلوزة) و(المغذية)، فأصدرت المحكمة العسكريّة في يوم الثاني من مايو 1921 حكما بإعدامه، ما زاد في إصراره على مقاومة المستعمر حتى النهاية. ولذلك أعاد في ليبيا تواصله مع القائد النالوتي على أمل الحصول على أسلحة لمعاودة شنّ الهجمات على الفرنسيين، لكن سرعان ما وقع ما لم يكن في الحسبان. إذ تمكن المحتل الإيطالي في ليبيا من الإيقاع به وبالنالوتي إثر مخطط محكم وحيلة ماكرة أفضيا إلى تطويقهما وتجريدهما من الأسلحة، وإلقاء القبض عليهما يوم 28 مايو 1922.

ولئن أعدم بن عسكر في شهر يونيو 1922 فقد أسر الدغباجي وأرسل مباشرة بعد اعتقاله يوم 28 مايو 1922 إلى سلطة المحتل الفرنسي في تونس عبر سيارة خاصة أوصلته إلى مدينة (مدنين) ثمّ نُقل إلى (وادي الزاس) (بين مدنين وقابس) وهناك تسلّمته فرقة أخرى تابعة لقابس، ومنها نقل إلى (مارث)، ثم رحّل على متن القطار إلى تونس العاصمة ليحاكم حضوريا أمام المحكمة العسكريّة باعتباره جنديا فارّا من الجيش الفرنسي إضافة إلى مشاركته في عدّة وقائع بالجنوب التونسي انتهت بمقتل شخصيات فرنسيّة.

وقد أكّد الدغباجي إثر هذه المحاكمة التهم الموجّهة إليه كالفرار من الجندية والمشاركة في مقاومة الفرنسيين. ولتبرير شرعيّة إعدامه حضرت هذه المحاكمة أرملة القائد (بولو) الذي قتله الدغباجي في معركة (الزلوزة)، مطالبة بالانتقام منه، وقد صدر الحكم بإعدامه رميا بالرصاص في بلده ترهيبا لأهله وعشيرته.

وفي غرة مارس 1924 اقتيد البطل إلى ساحة سوق بلدة (الحامة) حيث اصطفت الفرقة العسكريّة ببنادقها وأطلقت الرصاص عليه. ويروى أنه رفض العصابة، التي تقدم بها نحوه ضابط فرنسي ليضعها على عينيه. كما يروى أن زوجة أبيه زغردت لهذا المشهد، وهتفت عاليا، مباركة شجاعته والشرف الذي نالها منه، وأنه أجابها وهو يبتسم «لا تخشي علي يا أمي فإني لا أخاف رصاص الأعداء، ولا أجزع من الموت في سبيل عزّة وطني».

ومذّاك ما برح التونسيون يتناقلون بطولاته جيلا إثر جيل. فقد تغنى به الفنانون أمثال الفنان الشعبي (إسماعيل الحطاب) بأغنية «المشهور الدغباجي». كما وضعت صورته على طابع بريدي تكريما لنضاله وبسالته، إضافة إلى أنه تم إنتاج فيلم روائي سينمائي بعنوان «الدغباجي قلب الأسد» روى سيرته ومسيرته بين تونس وليبيا ورصد أشهر معاركه. وفي ساحة مدينته (الحامة) أقيم له نصب تذكاري ليبقى معلما تاريخيا وحضاريا على مر الزمن.

القائد الشهيد

عبد الله بن جحش الأسدي رضي الله عنه
خير فرسان العرب

طـــارق عـــديّ

القائد عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر الأسدي ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب، وكنيته أبو محمد الأسدي، أسلم رضي الله عنه مبكرا، فهو من أوائل المسلمين، وكان ذلك قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم. فناله الأذى من قريش بسبب إسلامه، وعضته أنياب المشركين وشددوا في إيذائه، فكان ممن هاجر الهجرتين إلى الحبشة، عندما أذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إليها، وامتدح لهم ملكها وحاكمها النجاشي رضي الله عنه، وقال لهم «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه».

فخرج عبد الله رضي الله عنه إلى الحبشة هو وأخواه أبو أحمد وعبيد الله، وأختهم زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وأم حبيبة وحمنة بنت جحش. فنالوا بذلك فضل المهاجرين الأولين بدينهم الحريصين على عبادة ربهم على الصراط المستقيم. وفي هذه الأسرة الكريمة وأمثالها من الرعيل الأول المهاجرين إلى الحبشة، جاء قوله تعالى: «قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» (الزمر:10) قال حبر الأمة ابن

من أوائل من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، آخاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عاصم بن ثابت وولاّه «سرية نخلة»

عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالي لهذه الآية : يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة. ونقل القرطبي رحمه الله تعالى عن قتادة، عند تفسيره لقوله تعالى: «والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لَنبوّئَنّهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون» (النحل: 41)، قال المراد بهذه الآية أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لجأت طائفة منهم إلى الحبشة، ثم بوأهم الله تعالى دار الهجرة، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين.

وكان رضي الله عنه بعد ذلك من أوائل من قدم المدينة بعد أن أذن رسول الله لأصحابه بالهجرة إليها. يقول اللواء محمود شيت خطاب رحمه الله تعالى في كتابه قادة النبي صلى الله عليه وسلم : وحين أذن النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة كان ثالث من هاجر إليها عبد الله بن جحش رضي الله عنه، فقد احتمل بأهله وأخيه عبد بن جحش، وهو أبو أحمد، وكان رجلاً ضرير البصر، وكان يطوف بمكة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وكان شاعرا، وكانت عنده الفارعة بنت أبي سفيان بن حرب. وفي المدينة المنورة وجريا على عادته صلى الله عليه وسلم في الربط بين المهاجرين والأنصار آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الله بن جحش وبين عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح رضي الله عنهما.

ومما يدل على عظمة هذا الصحابي الجليل عبد الله بن جحش رضي الله عنه ماقاله فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم «منا خير فارس في العرب». وكذا ما حدث به الصحابي البطل المغوار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حين قال: «كان عبد الله بن جحش خيراً مني » إلى جانب أقوال وشهادات مباركات أخرى سنذكرها لهذا البطل المقدام عندما نعرض لأحداث سرية نخلة التي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادتها فكان نعم القائد الفذ والبطل الشجاع صاحب المهمات الصعبة وقد أمّره رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرية نخلة، فكان أول أمير أمّره، وكانت غنيمته أول غنيمة غنمها المسلمون، وخمسها فجعل خمساً للنبي صلى الله عليه وسلم، وقسم الباقي، فكان أول خمس في الإسلام، وشهد رضي الله عنه بدراً وأبلى فيها بلاء حسناً،

وقتل شهيداً يوم أحد.

وفي طبقات ابن سعد أن عبد الله بن جحش رضي الله عنه هو أول من سمي أمير المؤمنين في الإسلام، حين أمّره صلى الله عليه وسلم على سرية نخلة.

سرية نخلة

هي أول سرية بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أطراف مكة، وذلك في رجب، على رأس سبعة عشر شهراً من مهاجره، في السنة الثانية الهجرية، وقد أمّر عليها بطلنا وشهيدنا الذي نتناول سيرته العطرة في هذا المقال، عبد الله بن جحش الأسدي رضي الله عنه في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، ليس فيهم أحد من الأنصار. وكان كل اثنين منهما يعتقبان بعيراً.

ونخلة هذه التي قصدتها هذه السرية، هي بستان ابن عامر قرب مكة، على طريق مكة – الطائف. ومن مزايا هذه السرية أنها لم تعلن مهمتها ولم تعرف وجهتها، وإنما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن جحش كتاباً، وأمره ألّا يفتحه وينظر فيه إلا بعد أن يسير يومين، وهذا النوع من الرسائل العسكرية تسمى الرسائل المختومة، وقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم في رسالته هذه: أن يمضي لما أمره به، ولا يكره من أصحابه أحداً على السير معه، بعد فتح الرسالة، وأن يأذن لمن شاء أن يتخلف عن ذلك.

فلما سار عبد الله بسريته يومين فتح كتاب رسول الله ونظر فيه، فإذا نصه: «إذا نظرت في كتابي هذا، فامضِ حتى تنزل نخلة، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم» فقال رضي الله عنه عند ذلك: سمعاً وطاعة. ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى نخلة، وأرصد بها قريشاً، حتى آتيه منها بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم على المسير معي، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمضوا جميعا رضوان الله عليهم، ولم يتخلف منهم أحد.

قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأعطين الراية رجلاً هو أصبر على الجوع والعطش»

وهذا هو شأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والرعيل الأول من هذه الأمة السمع والطاعة، والالتزام والانقياد لأمر الرسول القائد دائماً، وهم كذلك في المهام العسكرية أشد التزاما وأحسن انضباطاً. وتم السير على ذلك إلى أن وصل الركب المبارك إلى (بحران) وهو موضع بين المدينة والفرع، فأضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما الذي كان يعتقبانه، فتخلفا في طلبه، والبحث عنه، وانطلق عبد الله وأصحابه حتى وصلوا نخلة ونزلوا بها، فمرت بهم عير لقريش تحمل زبيبا وأدماً وتجارة من تجارة قريش، عليها عمرو بن الخضرمي، وفيها عثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رأى المشركون المسلمين هابوهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن رضي الله عنه وكان قد حلق رأسه، فلما رآه المشركون أمنوا، وقالوا : عمار لا بأس عليكم منهم. وتشاور المسلمون فيما بينهم فقالوا : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعنّ منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الخضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل بن عبد الله فأعجزهم.

إني لم آمر بقتال:

قال عبد الله لأصحابه: «إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما غنمنا الخمس» وذلك من قبل أن يفرض الله تعالى الخمس من المغانم، فعزل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خمس العير، وقسم سائرها بين أصحابه، وكان ذلك بتوفيق من الله تعالى له بهذا الاجتهاد، حيث تبعه تصديق من الوحي، وإن دل على شيء فإنما يدل على صفاء السريرة، وحسن الإخلاص، ونقاء الطوية التي فطر عليها هذا الصحابي الكريم. ولكنهم لما قدموا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم سالمين غانمين، قال لهم: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فسقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم على ذلك أشد التعنيف وأثقله. ثم أشاعت قريش أن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، واستغل اليهود – وهذا شأنهم دوماً – هذه الحادثة، وأخذوا في تحريض قريش والمشركين على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وجاء الفرج

فما لبث الوحي أن نزل بقوله تعالى: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل» فلما سمع المسلمون بهذه الآيات فرج الله عنهم وعن إخوانهم الغزاة ما كانوا فيه من الخوف والهم. وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين، وامتنع عن فداء الأسيرين عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وقال لقريش: «لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا – يعني سعداً وعتبة اللذان أضلا بعيرهما – فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم»، فلما قدم سعد وعتبة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الفدية. فما كان من الحكم بن كيسان إلا أن أسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا رضي الله عنه، وأما الآخر فلحق بمكة فمات بها كافراً.

لقد كانت سرية عبد الله بن جحش

رضي الله عنه إلى نخلة في الأصل سرية استطلاع، ولم يرد منها قتال، ولكن جرأة القائد وحماسه جعلت منها بتوفيق من الله، بداية حصار اقتصادي على قريش من عدة جهات كما كانت سببا لنيل المغانم، وتشريع الخمس، وافتداء الأسرى، والنيل من عزة الشرك والمشركين، وكسر جبروت قريش والتجرؤ عليها في دارها، وهذا أمر لم يكن الناس تتوقعه في تلك الأيام.

وكذا عظمة القائد الشهيد عبد الله بن جحش الذي اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكفاءته وشجاعته وحنكته جاءت بهذه النتائج الإيجابية الكثيرة المتعددة لهذه السرية، ويدل على ذلك ما جاء في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب المسلمين وقال: لأبعثنّ عليكم رجلاً ليس بخيركم ولكنه أصبر للجوع والعطش، فبعث عبد الله بن جحش رضي الله عنه. وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لأعطينّ الراية رجلاً هو أصبر على الجوع والعطش منكم، فأعطاها عبد الله بن جحش، فقال عبد الله: يا رسول الله، أسير بها وأنا غلام حدث، فقال له: سر. فسار ففتح الله عليه» يقول صاحب كتاب قادة النبي صلى الله عليه وسلم: لقد كان واجب سرية عبد الله بن جحش أشبه بواجبات المغاوير أو القوات الخاصة في الجيوش الحديثة، تلك التي تدرب تدريباً شاقاً عنيفاً على تحمل الأهوال، واجتياز العقبات، والصبر على الجوع والعطش.

ثم استكمل جهاده رضي الله عنه في اليوم السابع عشر من رمضان في السنة الثانية للهجرة في غزوة بدر الكبرى، التي أبلى فيها بلاء حسناً، وبذل فيها قصارى جهده لإحراز النصر على المشركين، وهو رضي الله عنه الذي أسر فيها الوليد بن الوليد بن المغيرة أخا خالد بن الوليد رضي الله عنه. ومما يدل على علو قدره، وحصافة رأيه ورفعة مكانته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان فيمن استشارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن الأسرى يوم بدر، وكان رأيه كرأي أبي بكر رضي الله عنه الذي قال: قومك وأهلك، استبقهم لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك.

عرف باسم «المجدّع» لأن المشركين مثلوا بجثته بعد استشهاده في معركة أحد

استشهد عن نيف وأربعين عاماً، ودفن هو وخاله حمزه بن عبدالمطلب في قبر واحد

إخلاصه في طلب الشهادة وإقباله عليها

يتبدى إخلاص عبد الله بن جحش رضي الله عنه في طلب الشهادة ورغبته فيها في هذا الحوار العجيب الذي دار بينه وبين أخيه في الجهاد في سبيل الله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، هذا الحوار الذي جرى بين يدي غزوة أحد، وهو اليوم الذي استشهد فيه رضي الله عنه.

روى إسحاق بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا تأتي ندعو الله تعالى، فخليا في ناحية فدعا سعد فقال: اللهم إذا لقيت العدو غداً، فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، فأقتله فيك وآخذ سَلَبَه، فأمّن عبد الله بن جحش ثم قال: اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده فأقاتله فيك ويقاتلني ثم يقتلني ويأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك قلت يا عبد الله فيمَ جدع أنفك وأذناك؟ فأقول فيك وفي رسولك صلى الله عليه وسلم، فيقول صدقت. قال سعد: كانت دعوة عبد الله خيرا من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وأنفه وأذناه في خيط. لقد صدق الله في السؤال فصدقه الله سبحانه وتعالى في الإجابة. وعن علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال في ختام هذا الخبر: إني أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما بر أوله. وروي أن عبد الله بن جحش رضي الله عنه انقطع سيفه يوم أحد فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفا، فكان يسمى العرجون، ولم يزل يتناول من يد بطل إلى بطل ومن غاز إلى غاز على مدى قرون حتى بيع من بُغاً القائد التركي بمئتي دينار.

وكان استشهاده رضي الله عنه بعد هذه المسيرة المباركة في الهجرة، وهذا الجهاد والغزو ابتغاء رضوانه وجنته يوم أحد، وكان الذي قتله أبو الحكم بن الأخنس بن شريق الثقفي، ولقد مثل المشركون بعبد الله بعد قتله فجدعوا أنفه، وقطعوا أذنيه، وبقروا بطنه، فكان يقال له المُجدّع في الله حتى عرف بهذا الوصف بعد استشهاده.

وكان عمره حين قتل نيفاً وأربعين سنة، ودفن هو وخاله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في قبر واحد، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما، وتولى بنفسه تركته فاشترى بها لابنه مالاً بخيبر.

إن زوج المرأة منها لبمكان

ومما يحسن تدوينه أن نختم هذا المقال بهذه القصة المرتبطة باستشهاد عبد الله رضي الله عنه، فإنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لقيته حمنة بنت جحش أخت عبد الله، فلما لقيت الناس نعي إليها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت – أي قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون – واستغفرت، ثم نعي إليها أخوها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن زوج المرأة منها لبمكان، لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها.

رحم الله القائد الشهيد عبد الله بن جحش فقد كان رضي الله عنه قدوة في الصبر والشجاعة، ونموذجا لمن يأتي بعده في القوة والصلابة والإقدام في الحق.

أول امرأة توضع صورتها على العملة الأمريكية

سوزان أنتوني .. قاهرة الرق والتمييز

كرست الناشطة الحقوقية الأمريكية سوزان برونويل أنتوني كل حياتها لانتزاع حقوق المرأة، ومناهضة الرق، وتحقيق المساواة بين الرجل والمرأة. وكانت رائدة النضال في فترة مبكرة من التاريخ الأمريكي شهدت تفشي العبودية، وسيادة الرجل الأبيض، وإقصاء المرأة عن كل الحقوق.

كرست حياتها لانتزاع حقوق المرأة وكانت أول أمريكية تصوت في الانتخابات

عبدالهادي خضر

وبالصبر والحكمة والإصرار، تمكنت بعد نحو مئة سنة من النضال من الحصول على حق المرأة في التصويت في الانتخابات. وكانت قبلا قد انتزعت العديد من حقوق المرأة، كحقها في التعليم الجامعي والمختلط عام 1856، وحقها في المرافعة أمام القاضي عام 1876، وحقها في امتلاك ممتلكات خاصة والإشراف عليها وإقامة الدعاوي القانونية، وحقها في طلب الطلاق، وحقها في الاشتراك في حضانة الأطفال في حالة حدوث الطلاق.

ولدت سوزان أنتوني في 15 فبراير من العام 1820 في مدينة صغيرة تدعى «أدمز» تابعة لمقاطعة «ماساشوسيتس» الأمريكية. وكانت عائلتها تنتمي إلى «جمعية الأصدقاء» الدينية المناهضة للحروب، والمعارضة للرق وشرب المسكرات (الكويكرز). وعُرف أبوها «أنتوني دانيال» بإيمانه بالمساواة بين النساء والرجال، والتزامه الديني المرتكز على السلام الروحي الداخلي. وقد حرص على تعليم أبنائه إظهار حبهم لله خلال العمل على مساعدة الآخرين.

ظهر تميز سوزان في سن مبكرة، حيث تمكنت من تعلم القراءة والكتابة في سن الثالثة. وبعد انتقال العائلة إلى نيويورك ألحقها أبوها في العام 1826بإحدى المدارس هناك، لكنه سرعان ما اكتشف أنها كانت تتلقى تعليماً ضعيفاً، فصار يرسلها إلى مدارس بيتية، بل كان يضطر إلى تدريسها بنفسه في بعض الأحيان، ثم أوجد لها معلمة تدعى «ماري بيركنز» كانت تُدرسها، وتشجعها في الوقت ذاته على الدفاع عن حقوق المرأة.

بعد ذلك، وفي عمر السابعة عشرة، أي عام 1837، أرسلت سوزان إلى مدرسة داخلية في مدينة فيلادلفيا

في ولاية بنسلفانيا، وهي مدرسة خاصة بالإناث تابعة لـ «جماعة الأصدقاء». لكنها اضطرت في العام 1839 إلى تركها، وبدء حياتها العملية كمدرسة للمساعدة في تسديد ديون أبيها بعد أن تدهور عمله في محلج القطن الذي كان يمتلكه، واضطر لنقل الأسرة إلى مزرعة بالقرب من «روتشستر» في نيويورك. وقد واصلت أنتوني التدريس حتى عام 1849، حيث طلب منها والدها العودة إلى المنزل لإدارة مزرعة العائلة حتى يتمكن من التفرغ لتطوير أعماله.

في تلك الفترة اعتاد العديد من المصلحين المشهورين مثل (فريدريك دوغلاس)، و(وليام لويدغاريسون)، و(وندل فيليبس) زيارة والدها وفتح نقاشات مطولة حول موضوعات الساعة آنذاك. وقد ساعدتها مناقشاتهم المتكررة على تكوين وجهات نظرها القوية حول الرق وحقوق المرأة، وعدم الإسراف في تعاطي الكحول. ولذلك لم يكن مستغربا أن تنخرط مبكرا في (حركة الاعتدال) المنادية بتجنب الإفراط في تعاطي الكحول، فكرست معظم وقتها للحركة، واعتبرت قضيتها قضية خاصة بحقوق النساء، بسبب القوانين التي تمنح السلطة المطلقة للرجل في الأمور المالية والعائلية. فقد كانت زوجات مدمني الكحول لا يملكن سوى النزر اليسير من المساندة القانونية حتى لو كلّف إدمان أزواجهن عوز العائلة، بل والطلاق وحرمانهن

صورتها على العملة الورقية

جابت أمريكا وأوروبا خلال 45 عاما وكانت تلقي نحو مئة خطبة سنويا لتحرير المرأة

قانونيا بالتالي من الوصاية على الأطفال.

في العام 1851، وعندما رفض أعضاء الحركة الذكور السماح لها بالتحدث في التجمعات لأنها امرأة، أدركت أن النساء يجب أن يفزن بالحق في التحدث علنا، والتصويت قبل أن يتمكّن من إنجاز أي شيء آخر. وردا على ذلك قامت بتشكيل مجموعة اعتدال نسائية في ولايتها، وعملت على تشجيع النساء على التماس حلول قانونية لحماية أسرهن من الفقر والعنف الناجم عن تعاطي أزواجهن الكحول.

صداقة وشراكة

شاءت الصدف أن التقت

صورتها منقوشة على الدولار

ذلك العام بالناشطة الحقوقية «إليزابيث كادي ستانتون». وبعد وقت قصير من التعارف، واكتشاف اهتمامهما بالقضايا ذاتها وسعيهما إلى أهداف متماثلة، بدأتا صداقة حميمة أفضت إلى شراكة دامت مدى الحياة. وقد تمكنتا معا من إحداث ثورة في الوضع السياسي والاجتماعي للمرأة

جانب من إحدى الحملات

في المجتمع الأمريكي من خلال نشاطهما المتلاحق في طول البلاد وعرضها، وتحدثهما عن حقوق المرأة وشنهما حملات لمناصرة فرص تعليم متساوية، ومنح النساء المتزوجات حقوقهن في الأجور والملكية والتعليم والوظائف والانتخاب.

وفي عام 1854 بدأتا حملة لتوسيع قانون الملكية للمرأة المتزوجة في نيويورك. ولما كانت أنتوني عزباء ولا تحمل هم الأعباء الأسرية كستانتون المتزوجة، فقد تكفلت بإعداد الحملة وقيادتها، وتنظيم التجمعات في مختلف أنحاء ولاية نيويورك. وفي الوقت الذي تولت فيه ستانتون صياغة الخطب والبحث القانوني، تولت أنتوني السفر والتحدث للحشود. وهكذا تواصلت الحملة إلى أن أصبحت المطالب عامة وملحة، فكان إقرار قانون الملكية والوصاية للمرأة المتزوجة في ولاية نيويورك في العام 1860، وهو القانون الذي مكنها أيضا من حق المشاركة في الأعمال التجارية وإدارة أجورها وإيراداتها، إضافة إلى الوصاية المشتركة على الأطفال.

الرق والاقتراع

في ذلك الوقت كانت أنتوني تشغل منصب ممثل نيويورك في الجمعية الأمريكية لمناهضة الرّق. وحين نشبت الحرب الأهلية (1861-1865) بين الولايات الشمالية والجنوبية حول قضايا الرق، وقرار مقاطعات الجنوب مغادرة

الاتحاد لتشكيل دولة مستقلة، ركزت أنتوني اهتمامها على إنهاء الرق. وأنشأت الرابطة الوطنية للمرأة، ونشطت في حشد الضغوط لتعديل المادة الثالثة عشرة من الدستور الأمريكي الخاصة بالرق. وقد تمكنت آنذاك من جمع أكثر من أربعمئة ألف توقيع مطالبة بإلغاء الرق، وقدمتها إلى الكونغرس عبر الشبكة الوطنية لحقوق الإنسان في محاولة لإقناع أعضائه بتمرير التعديل الذي يكفل حرية الأمريكيين من أصل أفريقي.

وعندما انتهت الحرب، زادت جهودها الرامية إلى الحصول على حق التصويت للمرأة، وكذلك للذكور من أصل أفريقي، فأسست في العام 1866 الرابطة الأمريكية للحقوق المتساوية، ونظمت حملة للمطالبة بحق الاقتراع للنساء ولذوي الأصل الأفريقي. أما المفارقة فكانت رفض حلفائها الذكور السابقين من حركة مكافحة العبودية مساعدتها في كفاحها من أجل منح المرأة الحق في التصويت، بذريعة وجوب أن تكون الأولوية في ذلك للرجال الأمريكيين من أصل أفريقي. حينذاك سخرت من أنانيتهم وازدواجيتهم، وانفصلت عنهم، لكنها رفضت التخلي عن المعركة. إذ واصلت نشاطها، وبمساعدة صديقتها ستانتون في الضغط لإقرار حق المرأة في الاقتراع حتى نهاية حياتها.

وفي العام 1868 أسست مجلة أسبوعية لتعزيز قضايا

مع قائدات الحركة النسوية

سُميت سفينة باسمها وطبعت صورتها على طابع بريدي تقديرا لنضالها الطويل

سوزان أنتوني

صورتها على طابع بريدي

المرأة وسمتها «الثورة». وتولت ستانتون مع آخرين مسؤولية تحريرها، بينما كانت أنتوني الناشر ومدير الأعمال. وعلى الرغم من خسارة المجلة ماليا، إلا أنها شكلت منبرا مهما لنشر آرائهما بين أكبر شريحة ممكنة من الجمهور. وقد شهد

مجسم لأنتوني وستانتون ومات

ذلك العام إصدار الكونغرس التعديل الرابع عشر الذي يضمن حقوقا متساوية لجميع المواطنين دون أية إشارة إلى الجنس: «جميع الأشخاص الذين ولدوا أو المتجنسين في الولايات المتحدة، يعتبرون من مواطني أمريكا. ولا يجوز لأي دولة أن تضع أو تطبق أي قانون ينتقص من امتيازاتهم أو حصاناتهم ؛ كما لا يجوز حرمانهم من الحياة أو الحرية أو التملك دون اتباع الإجراءات القانونية الواجبة؛ ولا يجوز كذلك حرمانهم من المساواة في حماية القوانين».

ظن الكثيرون أن هذا التعديل يتيح حق الاقتراع للذكور والنساء معا. لذلك، وحين حانت الانتخابات الرئاسية في العام 1872 أرادت أنتوني اختبار دستورية هذا القانون من خلال الإدلاء بصوتها، لكن ما إن فعلت حتى تم اعتقالها، ثم فرضت عليها غرامة مئة دولار، رفضت دفعها وآثرت الاستمرار في القضية، مطالبة بإحالتها إلى المحكمة العليا لاختبار حق المرأة القانوني في التصويت بموجب ذلك التعديل. وبعد خروجها بكفالة ألف دولار نظمت حملات في جميع أنحاء البلاد مطالبة بحق المرأة في التصويت متسلحة بحجة قانونية، وهي أن المرأة مواطن وأن تصويت المواطن الأمريكي ليس جريمة. إلا أن قضيتها انتهت بالخسارة في عام 1873 في أعقاب استناد القاضي على أحكام مشكوك فيها، وإصداره أمرا بمنعها من

استئناف الحكم في المحكمة العليا.

الفشل مستحيل

في تلك الفترة لاحظت أنتوني أن كتب التاريخ الأمريكي لم تأت على ذكر المرأة الأمريكية ونضالاتها وحقوقها، فعمدت، وبمساعدة صديقتها ستانتون إلى كتابة تاريخ المرأة وقصة الحركة التي أنشأتاها. وتمكنتا بين عامي 1881و 1886 من نشر كتاب من ثلاثة مجلدات بعنوان «تاريخ حقوق المرأة». وبعدها بأعوام قليلة نشرت أنتوني مجلدًا رابعًا للكتاب.

في العام 1890، أدركت أنتوني ضرورة توحيد كل الجهود للوصول إلى الهدف المبتغى، فنجحت في دمج الجمعية الوطنية للمرأة مع الجمعية الأمريكية لحقوق المرأة، وأطلقت على المنظمة الجديدة اسم الاتحاد القومي الأمريكي لحق المرأة في الاقتراع، وترأسته الناشطة «كاري تشابمان كات». بعد ذلك تولت أنتوني رئاسة هذا الاتحاد منذ العام 1892 حتى تقاعدت في العام 1900، وزادت من تركيزه في تلك الفترة على شن حملات الاقتراع، في محاولة للفوز بالتصويت في كل ولاية على حدة.

احتفال نسوي بذكرى أنتوني في العام 1923

مع اليزابيث ستانتون

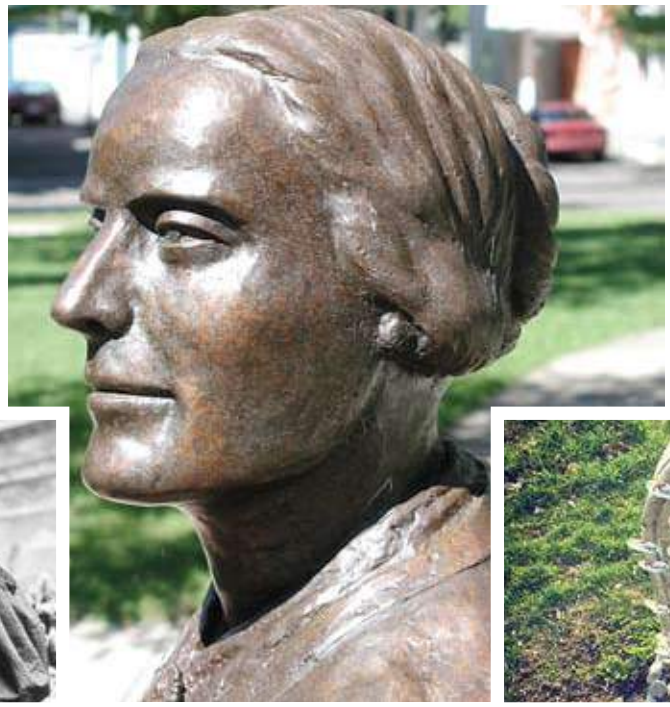

وفي فبراير 1906، وقبل شهر من وفاتها، ألقت أنتوني البالغة من العمر 86 عاما، خطابها الأخير في مؤتمر الاتحاد السنوي في «بالتيمور»، أكدت خلاله بأن يوم حق المرأة في الانتخاب صار أقرب من أي وقت مضى، وختمت خطابها بعبارة «الفشل مستحيل». بعد أسابيع، استسلمت لمضاعفات الالتهاب الرئوي وفشل القلب، وتوفيت في 13 مارس من ذلك العام. وبينما كانت أربع ولايات فقط قد منحت المرأة في ذلك الوقت حق التصويت، تم بعد أربعة عشر عاما تعديل الدستور وإعطاء المرأة حق التصويت في كل أرجاء أمريكا، وأطلق على ذلك التعديل اسم (قانون سوزان أنتوني).

كُرمت سوزان أنتوني في العام 1936 بإصدار طابع يحمل صورتها. وفي العام 1942 تم تسمية إحدى سفن البحرية الأمريكية باسمها، وفي العام 1979 سكّت الحكومة الأمريكية دولارا معدنيا حمل صورتها بمناسبة الاحتفال بريادتها في محاربة الرق، وكانت أول امرأة تظهر صورتها على عملة أمريكية معدنية. وفي العام التالي ظهرت صورتها على الدولار الورقي أيضا.

ضريحها

سوزان أنتوني

«بيت لوذان» ... أثر بعد عين

بناه أمير الكويت الراحل الشيخ صباح السالم في عام 1926 قرب السالمية وكان يرتاده مع أصحابه أيام الربيع والصيف للتنزه

محمود متولي

بعد مرور أكثر من 92 عاماً على إنشائه تحول مبنى «بيت لوذان» التراثي والتاريخي في منطقة السالمية إلى أثر بعد عين عقب قرار هدم المبنى الذي كان يعتبر علامة بارزة تعكس طابع البنيان الكويتي كما كان مركزاً مهماً لتبنّي المواهب الحرفية وإقامة الأنشطة الثقافية.

وأثـار قـرار هـدم «بيت لوذان» موجة عالية من الدهشة والاستهجان في أوساط المهتمين بالثقافة والآداب والفنون والـتراث محملين الحكومة مسؤولية عدم وضعه ضمن لائحة المباني التاريخية وعدم الحفاظ على التراث المكاني والـثـقـافي مـا يـعـد مخالفة للمواثيق والاتفاقيات الدولية التي انضمت لها الكويت».

كـمـا سـادت حـالـة من الاسـتـيـاء لـدى رواد مواقع الـتـواصـل الاجـتـمـاعـي على خلفية قرار هدم بيت لوذان، فيما أكد نشطاء أن لهذا البيت ذكـريـات لا تُنسى عند أهل الكويت وناشد آخرون المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بضرورة التدخل لوقف عملية الهدم والسعي إلى وضعه ضمن لائحة المباني التاريخية.

وغرد أحد النشطاء عبر تويتر قـائـلاً «مـع الأسـف تم هدم «بيت لـوذان» والحكومة لم تكترث لإرثها التاريخي»، في حين تساءل آخر، قائلاً لماذا لم يتدخل وزير الإعلام، ورئيس المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، لـوقـف هـدم «بيت لوذان» والسعي لوضعه ضمن لائحة المباني التاريخية.

وتجمع عـدد مـن نشطاء مواقع التواصل الاجتماعي في وقفة بالشموع عند «بيت لوذان» تلبية لدعوة على موقع «فيسبوك»، تحت عنوان «أضوي شمعات لوذان» وذلك للمطالبة بإنقاذه لكن دون جدوى.

وقـال عدد من المشاركين في الوقفة إن «بيت لوذان أكثر من رمز وأكثر من إشارة وكنا نتمنى من المعنيين أن يشاهدوه كموروث حضاري ويدركوا عدم

بيعه بأي ثمن ... وتساءلوا «هل نحتاج إلى مجمع تجاري أو فندق آخر؟ لمن؟».

وأضافوا «ما الموروث الحضاري بالنسبة لنا؟ وما أهمية المعالم والمواقع التاريخية إذ لم نعاصرها؟ بيت لوذان ملكية خاصة، ولكن الجميع يشعر بأنه جزء منا جميعاً وللكويت».

لكن باءت كل هذه المطالبات والاستغاثات بالفشل ولم تفلح في إنقاذه من مصير الهدم.

فترة التأسيس

تأسس «بيت لوذان» في عام 1926 م قرب منطقة السالمية في منزل الشيخ صباح السالم الصباح أمير الكويت الثاني عشر رحمه الله حيث كان يرتاده مع أصحابه أيام الربيع والصيف للتنزه، وتم بناؤه من الطين وصخور البحر على ثلاث مراحل الأولى في الثلاثينات من القرن الماضي والثانية في الأربعينيات والأخيرة في الخمسينيات، وتبلغ مساحته 4000 متر مربع.

وقد أُعيد ترميمه بعد عام 1991، للمحافظة على طابعه القديم، وتحوّل إلى مركز للفنون الجميلة والحرف اليدوية.

وأُطلق اسم لوذان على البيت لموقعه في هذه المنطقة التي كان يطلق عليها لوذان والتي كانت ملاذاً للسفن من العواصف والرياح في العشرينيات.

وتصميم بيت لوذان نموذج للبيت الكويتي القديم حيث يتكون من ثلاثة أحواش ...الأول هو حوش الديوان وأصبح حوش المحترف الذي يتكون من ورش عمل تدرس فيها الحرف والفنون بكل أشكالها ويستطيع

البيت شُيد من الطين وصخور البحر على مساحة 4000 متر مربع وأُعيد ترميمه بعد عام 1991، محافظة على طابعه القديم

الشيخة أمل الصباح حولت البيت لمؤسسة فنية غير ربحية ليكون منارة للإبداع في الكويت لكن جاءت الرياح بما لا تشتهي الثقافة

مثقفون ونشطاء يُحملون الحكومة مسؤولية هدم البيت وعدم وضعه ضمن لائحة المباني التاريخية

استخدام الورش كل من يرغب في الإفادة منها.

والثاني يسمى حوش العائلة (الحرم) وأصبح محاطاً بالقاعات التي أخذت أسماء نباتات الكويت الصحراوية نويرة، أثلة، صفصاف، سدرة، ثندة، حوذان، حوه حيث تقام فيه الأنشطة الثقافية والتعليمية والحرفية والموسيقية والفنية وعروض لمنتجات من مختلف البلدان أما الحوش الأخير فيسمى حوش المطبخ والذي خصص لمكاتب الإدارة.

وكانت الشيخة أمل الصباح السالم الصباح قامت بتحويله لمؤسسة فنية غير ربحية ليكون منارة للإبداع في الكويت وحتى يخدم أبناء المجتمع الكويتي فنياً وأدبياً وتعليمياً، من خلال ورش العمل التدريبية مثل ورش تشكيل وصناعة الحلي، وورش تشكيل الخزف، وورش التصوير الفوتوغرافي، وورش الرسم والتصوير الزيتي، وورش الخط العربي والزخرفة الإسلامية، وورش التصوير السينمائي وغيرها من الفعاليات في لفتة مميزة بهدف الحفاظ على التراث الكويتي وعلى هذا المعلم التاريخي المهم.

معرض هوية
ملامح جمالية على جدران الذاكرة

عبدالله بدران

عشرون عملا فنيا تحاكي التراث وتعبر عن ملامح جمالية متنوعة للإنسان العربي ومجتمعه من مشرقه إلى مغربه، ولاسيما للمجتمع الكويتي والخليجي، تضمنها معرض (هوية) الذي أقامته الفنانة التشكيلية الكويتية مي عبد اللطيف السعد في مدينة المنامة عاصمة مملكة البحرين الشقيقة، تزامنا مع احتفالات الكويت بالأعياد الوطنية.

والمعرض الذي افتتحه سفير الكويت لدى مملكة البحرين الشيخ عزام الصباح وعدد من المسؤولين في البحرين شهد إقبالا لافتا من المهتمين والزوار الذين أشادوا بالأعمال المتميزة التي تضمنها المعرض، وبالمضمون المختبىء وراء الملامح الجمالية التي تضمنتها اللوحات، وبذلك التعبير اللافت عن الهوية العربية التي تجمع أبناء الوطن العربي الكبير.

مي السعد: أتحدث باللون عن الهوية العربية وجذورنا المتشابكة.

تضمن المعرض مجموعة اعمال متنوعة ظاهريا، لكنها في أعماقها هي أعمال متكاملة تتواصل مع الحياة والذاكرة، سواء من خلال الوجوه التي تبقت ملامحها على جدران الذاكرة، وبالصور القديمة الملونة على الرغم من أنها بالأبيض و الأسود، ، أومن خلال إيقاع فني السامري والعرضة ، أو فن الصوت حين يأتي نقيا كما نتذكره.

وقالت الفنانة السعد لمجلة (الهوية) : إن مجموعة الأعمال التي قدمتها تأتي في سياق سعيي المستمر إلى تأكيد تجربتي وفكرتي الخاصة في إبراز الصوت والحركة من خلال الألوان وملامح الوجوه والرؤى والثيمات والمفردات

الشعبية، وتحويلها إلى مرتكز ودليل واتجاه للفنان الذي يقف خلف اللوحة، من خلال تفاصيل ودلالات في اللون والحركة، تحيل اللوحة إلى بطاقة تعريف بالفنان وذاكرته وجذوره.

وقدمت الفنانة في المعرض عشرين عملا متحيزا للواقع، والذاكرة، وهي أعمال ترى السعد أنها مسكونة بشغفها الدائم لإبراز هوية الانسان العربي القادم من هذه الأرض المضاءة بالشعر والأصالة والتاريخ، دون التنازل عن تضمين العمل الفني، فكرة ورؤى جديدة وحالة خاصة، للشخوص في العمل مفعمة بالحيوية والحركة.

وأضافت أنها من خلال عشرين عملا قدمتها في هذا المعرض كنت أريد الحديث باللون عن الهوية العربية وجذورنا المتشابكة في عمق الأرض، فتطرقت إلى الموروث في الشعر والغناء الشعبي، وإلى جمالية الحرف العربي ومعالمه الجمالية، و إلى الملامح العربية بأسلوب ولون معاصرين.

وفي إحدى اللوحات المعبرة التي تضمنها المعرض رسمت الفنانة بورتريات صغيرة متميزة لستة وجوه تعبر عن أزمان مختلفة، لكن ما يجمعها كلها أنها وجوه من أرض عربية تمتد من بلاد الشام إلى أطراف الصحراء في الجزيرة العربية.

ومن اللوحات المميزة في المعرض عملان لرجلين من حقب زمنية قديمة حرصت الفنانة من خلالهما على تقديم

أعمالي تتنوع في ظاهرها وتتكامل في أعماقها.

عشرون عملا متحيزاً للواقع والذاكرة لإبراز هوية الإنسان العربي.

إبراز الصوت والحركة خلال اللون والملامح.

رؤية لهوية مشتركة وتاريخ مشترك، مظهرة فيهما روح البدوي وملامح شخصيته المعبرة.

مي عبد اللطيف السعد في سطور

- حاصلة على جائزة المرأة العربية في الفنون للعام 2015
- حاصلة على جائزة الدولة التشجيعية للفنون التشكيلية للعام 2014، وجائزة معرض الأعمال الصغيرة الدولي في قطر 2015، وجائزة سمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح من مهرجان الإبداع التشكيلي في عامي 2013-2014، وجائزة معرض الربيع التشكيلي 2014، وجائزة عيسى صقر للإبداع من مهرجان القرين الثقافي للأعوام 2012 -2015
- نالت المركز الأول في مهرجان هلا فبراير التشكيلي للعام 2011 والمركز الأول في مسابقة IBOAC الدولية للعام 2011
- مؤخرا أصدرت كتابها الأول (كالكتابة أو أقل قليلا)
- أقامت العديد من المعارض الشخصية والجماعية، المحلية والدولية منذ العام 1994، ولها مشاركات دولية مثلت فيها دولة الكويت في المملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات، وسلطنه عمان، وبيروت واليمن، وفي السويد ومدريد وروما ولندن، وليبيا والمغرب، والجزائر
- معظم اعمالها مقتناة في الكويت وخارجها.

قبة متحف الشارقة للحضارة الإسلامية

الأول في الإمارات.. والنادر عالميا

الشـــارقـة «تعـــزف» هويتـهـا في متحـف الحضـارة الإسـلامية

حسن عبدالله

كل شيء في الشارقة هو عزف رائع على هويتها الإسلامية التي تتجلى في أكثر من 600 مسجد صممت بأسلوب معماري إسلامي فريد من الفسيفساء والنقوش والزجاج الملون والأرابيسك والرخام، وفي أبنية الجامعات والأسواق والمدارس والمسارح ومعظم المؤسسات والوزارات والبيوت وغيرها، إلا أن إمارة الشارقة فاجأت محيطها الإسلامي بإنشاء أول وأضخم متحف للحضارة الإسلامية في الإمارات وأحد أهم المتاحف الإسلامية في العالم، ليكون موطنا لأندر مجموعات الفن الإسلامي، وليقدم صورة بانورامية شاملة لهويتنا الإسلامية الإبداعية، حسب الترتيب الزمني، بداية من القرن الأول للإسلام وحتى الفترة المعاصرة.. وستبهرك أعمال الخزف والتحف المعدنية والزجاجية وقطع النسيج التاريخية والمخطوطات، فبمقتنياته التي تربو على 5 آلاف من أجمل وأندر المشغولات والقطع الفنية الأثرية، يعد هذا المتحف تعبيرا عن إنجازات الحضارة الإسلامية، وعن دارسيها وباحثيها وعلمائها وفنانيها.

وقد رعى الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى وحاكم إمارة الشارقة، تصميم وبناء هذه العمارة بالغة الجمال وفاتنة الذوق والتي تحتضن هذا المتحف لتضفي على المكان روعة وجمالا فوق جماله.وتم تدشين هذا الصرح المعماري لأول مرة في منطقة التراث عام 1996، ثم نقلت مقتنياته الفريدة إلى مبنى سوق المجرة المميز حيث أضيفت مقتنيات جديدة وتم تحديث أسلوب العرض في المتحف. وأعيد افتتاحه كمتحف الشارقة للحضارة الإسلامية في السادس من يونيو عام 2008 تحت مسمى «سوق المجرة». وسرعان ما تحول المكان بمتحفه إلى مركز تسوق شعبي لأهل الشارقة أنفسهم وموئل لزوار الإمارة والسائحين.

ولعل أول ما ينتزع الدهشة ويثير الإعجاب في المبنى كمأثرة فنية هو التصميم الفريد لقبة المتحف سواء من الداخل أو الخارج، فهي محمولة على ستة عشر عمودا، وتتوسط الردهة الرئيسة، والجانب الداخلي لهذه القبة عبارة عن فسيفساء متشابكة التصميمات، تصور سماء ليلية موشاة برموز البروج الفلكية ومجموعات النجوم السابحة فيها والدالة عليها، فيما تمت تغطية الجهة الخارجية من القبة بطبقة من الذهب الخالص.. بحيث يستدل الناس على المتحف من خلال تلبية نداء قبته الذهبية الساحرة والبارزة للجميع في شتى أنحاء المدينة.

أكثر من 5 آلاف قطعة فنية تمثل روعة الحضارة الإسلامية وعالميتها

حاكم الشارقة أهدى مقتنياته الأثرية لشعبه لتشكل البداية

تقودنا أمينة المتحف المساعدة حمدة أحمد داخل أروقته في جولة خاصة حيث تنتشر آلاف القطع التي تمثل روعة الحضارة الإسلامية وكونيتها، لنتعرف على تفاصيل مهمة من التاريخ الإسلامي والعلوم، والاكتشافات، والثقافة الإسلامية، والتمتع بجمال الفنون الآسرة.

وسط أكثر من خمسة آلاف قطعة فريدة تم اقتناؤها من مختلف أرجاء العالم الإسلامي كافة، وجرى ترتيب عرضها طبقاً للموضوع في سبعة أروقة فسيحة ومساحات عرض رحبة ضمن طابقين يشكلان بناء المتحف.

بدأنا التعرف على هويتنا الإسلامية من صالة - غاليريه - العلوم والإبداع التي تعرض إنجازات ومساهمات كبار الدارسين والعلماء من مختلف أرجاء العالم الإسلامي في صنع حضارة العالم، وذلك خلال النماذج المجسمة والصور والمعلومات عن أهم الاكتشافات والاختراعات والنظريات التي وضعها العلماء المسلمون في الفلك والطب والجغرافيا، والعلوم الطبيعية والهندسة المعمارية، والرياضيات والكيمياء، والتكنولوجيا العسكرية، والملاحة البحرية، والهندسة وغيرها.

ومنها تأخذنا مرشدتنا حمدة إلى صالة «العقيدة الإسلامية»، التي تقدم صورة شاملة ووافية للهوية الإيمانية للمسلم، بحيث يتعرف الزائر، أيا ما كان معتقده، على أركان الإسلام الخمسة ومبادئ العقيدة الإسلامية، وفيما تتجسد أمامك شعائر الحج والعبادات الأخرى، يظهر مجسم رائع للكعبة وعدة أجزاء من كسوتها المشرفة، ومخطوطات نادرة من القرآن الكريم والتفاسير، ونماذج مجسمات وصور وعروض معلومات عن المساجد والجوامع من مختلف أنحاء العالم الإسلامي القديم والحديث.

وتتقدمنا ابنة الشارقة المرشدة رقية أحمد إلى أروقة الفن الإسلامي في الطابق الأول من المتحف، والصعود إليه عبر درج يؤدي إلى مصعد المدخل الرئيسي، وقد صممت طريقة عرضها الشامل للمشغولات الحرفية والفنية الإسلامية بحيث تأخذك كزائر في رحلة استكشافية تمتد من فجر العصور الإسلامية حتى العصور الحديثة، أي عبر مدى

زمني يقرب من 1400سنة.

وخصصت الصالة الأولى للقرون الأولى من الفن الإسلامي، وفيها تعرض الفخاريات والمشغولات المعدنية والزجاج والفنون الصغرى التي تم صنعها في العالم الإسلامي، فيما بين القرن الأول الهجري - السابع الميلادي، والقرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي. تلك الحقبة الزمنية التي شهدت من الناحية السياسية، انطلاقا من مهدها في شبه الجزيرة العربية إلى شواطئ المحيط الأطلسى من شبه الجزيرة الإيبيرية في الغرب، وإلى حدود الصين من جهة الشرق.

مشغولات فنية

في الصالة الثانية من صالات الفنون الإسلامية تعرض مقتنيات دقيقة وجميلة للمشغولات الفنية التي تعود إلى ما بين أواخر القرن السابع الهجري- الثالث عشر الميلادي،والقرن الثالث عشر الهجري- التاسع عشر الميلادي، حيث نرى الفنون الإسلامية وتداخلها مع الحقب المغولية والتتارية والعباسية والعثمانية، وتقدم المقتنيات الفريدة من نوعها في هذه القاعة صورة لهذا النمط الفني الإسلامي المميز، والأشكال التي ابتدعها المسلمون من أشكال نباتية وهندسية إضافة إلى فنون الخط وغيرها.

وتأخذنا الصالتان الثالثة والرابعة إلى داخل العصر الحديث، انطلاقا من القرن الثالث عشر الهجري- التاسع عشر الميلادي،ثم مباشرة نحو عصرنا هذا.

وقد خصصت هاتان الصالتان للمشغولات الحرفية وعرض الأسلحة التي كانت مستخدمة خلال تلك الحقبة.

لن يتركك متحف الشارقة للحضارة الإسلامية تمر عبر ممراته إلا من خلال عرض مميز للمسكوكات الإسلامية، من دراهم ودنانير أموية وعباسية وساسانية وغيرها، بحيث تتعرف بدقة على تاريخ العملة الإسلامية ونشأتها وبداية هويتها العربية، وتقترب من التاريخ الإسلامى على اتساع رقعته.

أبرز المقتنيات

ثمة مقتنيات نادرة ومهمة في المتحف في مقدمتها عدد كبير من الدنانير الأموية الخالية من الرسوم وتحوي نقوشاً تتضمن الشهادتين، التى أمر الخليفة الأموي «عبدالملك بن مروان» بصكها عام سبعة وسبعين للهجرة.

وستبهرك ستارة للكعبة المشرفة في صالة أبوبكر، وهي المعروفة باسم البُردة أو «البرقع» والتي تشكل الجزء الأكثر زخرفة في الكسوة، وهذا النموذج صُنع برعاية من الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود، يرحمه الله وتم نسجه من الساتان الحريري الأسود، ومطرزة بخيوط من الذهب والفضة، كتبت عليها آيات قرآنية ضمن أطر تقليدية قوامها لوحات مستطيلة وزخارف ودوائر.

آلة عود أثرية

أمينة المتحف حمدة أحمد

التختروان الأندلسي

وستقف مشدوها في صالة ابن الهيثم للعلوم والتكنولوجيا أمـــام مجـسـمـات ونمـــاذج للإسطرلاب، الـذى هـو من أكثر الأدوات استخداماً في المراصد، وفي تحديد الوقت ليلاً ونهاراً وقياس الارتفاعات ومسارات النجوم، وتحديد الاتجـاهـات خـلال السفر، صنعت من قبل علماء مسلمين خلال الفترة 600 - 1100 للهجرة.

وفي صالة الفنون الأولى بالطابق العلوي سترى مبخرة من البرونز على شكل حيوان، تعبر عن أهمية البخور في الثقافة الإسلامية، تنتمي إلى القرنين الخامس- السادس الهجري، الحادى عشر - الثاني عشر الميلادي، صنعت في خراسان.

وفي صالة الفنون الثالثة بالطابق العلوي يواجهك حامل المصحف الشريف (الرواحل) وهو مماثل لحامل مصحف مملوكي شهير محفوظ في متحف الفن الإسلامي بمدينة القاهرة، حُفر عليه اسم السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، وصانعه هو محمد بن سُنقُر البغدادي.

وثمة نسخة طبق الأصل من مصحف عثمان، والنسخة الأصلية موجودة في تركيا، فقد أمر صاحب السمو حاكم الشارقة بنسخ 1000 نسخة منها على نفقته الخاصة.

والحقيقة أنه لابد من الإشارة إلى أن نواة مقتنيات المتحف كانت مجموعة خاصة لصاحب السمو حاكم الشارقة

جولة داخل متحف الحضارة الإسلامية

مقاتل مسلم من العصور الوسطى

منذ عام 1996، لكن الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى تفضل بإهدائها إلى شعبه وإلى المسلمين عامة، كي تشكل متحفا نادرا وعصريا في نفس الوقت لفنون الإسلام وتاريخه عبر الحقب الزمنية المتعاقبة.

كتاب الله تعظمه الشارقة احتراما لهويتها الإسلامية

نموذج لمصحف عثمان

فنون حداء الإبل والخيـل

الحـداء من الفنون العربية العريقة، مارسها العربي منذ القـدم لتنشيط سير الإبل ولإدخال الأنس على راكبيها

د. حمد الهباد

الحداء من الفنون الغنائية العربية التي ارتبطت بمحاكاة الإبل تحديدا لتمدها بالنشاط والسرعة أثناء السير فقد استلهم الإنسان العربي طرائق التنغيم اللفظي والوزن الشعري في التأثير عليها بفطرته جاعلا من صوته وأوزان شعره (الهجيني) وسيلة فريدة في التأثير في نشاطها ليمدها بالطاقة فتنطلق بطريقة فريدة تقطع الفيافي دون كلل أو ملل، فالحداء من الفنون العربية العريقة التي مارسها الإنسان العربي منذ القدم في شبه الجزيرة العربية محددا ضالته فيه بتنشيط سير الإبل لقطع المسافات في المقام الأول ولإدخال الأنس على من يركب الإبل لإزالة الوحشة في وسط تلك الصحارى.

ولعل الأحاديث تزخر بموضوع الحداء فعن مجاهد رضي الله عنه ذكر عن البني صلى الله عليه وسلم: أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي قوما فيهم حادٍ يحدو، فلما رأوا النبي عليه الصلاة والسلام سكت حاديهم، فقال: من القوم؟، فقالوا: من مضر، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما شأن حاديكم لا يحدو؟، فقالوا: يا رسول الله إنا أول العرب حداءً، قال: ومم ذلك؟، قال: إن رجلا منا وسموه لنا، غرب عن إبله في أيام الربيع فبعث غلاما له مع الإبل، قال: فأبطأ الغلام فضربه بعصا على يده فانطلق الغلام وهو يقول: يا يداه، قال: فتحركت الإبل لذلك ونشطت، قال: فقال له: أمسك أمسك، قال: فافتتح الناس الحداء.

الحداء تحول إلى «الهجيني» نسبة إلى الهجن، وفق مضامين لحنية وأوزان شعرية

وجاء في الأثر حديث عامر بن ربيعة قال: رأيت عبدالرحمن بن عوف يطوف بالبيت يحدو، عليه خفان فقال له عمر: ما أدري أيهما أعجب حداؤك حول البيت أو طوافك في خفيك، قال: قد فعلت هذا على عهد من هو خير منك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يعب ذلك عليّ. حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا شريك فذكر نحوه.

ورغم أن مصطلح الحداء في مصاحبة الإبل تحول إلى لفظة (الهجيني) نسبة إلى الهجن فهو لم يبعد عن مضامينه اللحنية أو الأوزان الشعرية التي اتفق عليها أصحاب اللغة بوزن بحر البسيط: (مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن) ويعرفه في الأدب الشعبي بمصطلح

(الهجيني الطويل) ومثاله:

ألله خلقني لبعض الناس مطواعي

بعض المخاليق لا سمع ولاطاعة

كما تفرع من الهجيني الطويل نوع يعرف بالهجيني (المنكوس) وهو عكس تفاعيل الهجيني الطويل وتفاعيله: (فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن) والنكس لغة: نكس الشيء (فانتكس) قلبه على رأسه ومثاله:

زوع قلبي زوعة الحر من راس الطويل

نايفٍ ما به إلا قرانيس الحرار

كما تفرع منه الهجيني القصير: (مستفعلن فاعلن فعلان)

تناوله الشاعر بن لعبون في قصيدته:

حي المنازل بديم أخزام

أتحية الجار للجارة

ثانيا: حداء الخيل:

وهناك نوع من الحداء يعرف بحداء الحصان يكون من ارتجال فارس القبيلة عند الإقدام في الحروب حيث يرتجل الفارس على ظهر الحصان عدة أبيات لا تزيد على بيت أو بيتين تثير الحماس في نفوس المحاربين وعادة ما يكون الحداء على ظهور الخيل أو الجيش والحداء نوع من النخوة لتماسك الصفوف لصد الأعداء المهاجمين حيث يتقدم رئيس القبيلة رافعا سيفه قبل الالتحام مع الجيوش المهاجمة مغنيا بالحداء ليبث الشجاعة في صفوف جيشه وليسمع الآخرين أنه لا مناص من الحرب حيث يقول:

يا ربنا مامن مطير

جمعين والثالث بحر

لعيونهم نسوي طريق

لعيون براقه النحر

ولفرسان القبائل المتحاربة علامات مميزة بحيث لا بد أن يكون الفارس مميزا عن غيره من المحاربين فمنهم من يلبس الجوخ الملون بخيوط القصب ومنهم من يختلط شعر رأسه بشعر ذيل فرسه وذلك

حداء الخيل نوع من النخوة لتماسك الصفوف، وإثارة الحماس عند التحام الجيوش

لشدة سير الحصان أثناء المهاجمة لطول شعر الفارس. لذلك تجد صاحبها يرتجل من الشعر كلاما يتناسب مع تلك المواقف حيث يقول:

يالله ياللي ما نبي غيرك مدد

انك تعاونا على اللي عايلين

جونا على غره وجيناهم هدد

واللي حضر منا يسر الغايبين

ففي تلك الأبيات تجد الحادي يحرض القوم لصد الغدر والخيانة حتى ولو كانت عشيرته من القلة وبدون استعداد للمعركة وأنهم سيضربون عدوهم ضربا لكرامتهم.

وقد يلجأ المتحاربون عند الهزيمة للمرأة لتلعب دورها فعندما تجد النساء الهزيمة قد حامت برجالهن يتقدمن يحملن السيوف للقتال وعادة ما تقوم بنت رئيس العشيرة وأميرها بلبس أفخر الثياب تصاحبها بنات أكابر القوم وأشرافها يتقدمن الصفوف على الإبل حاسرات الرؤس ليثرن حفيظة الرجال والذود عن كرامتهم وقد تلعب المرأة دورا آخر لحث الرجل للتقدم لتصبح شريكة له في الحياة وهذا الدور الذي تلعبه المرأة أثناء المعركة ما هو إلا نوع من إثارة الحماس في صفوف الرجال والذود عن الأرض وكسب المعركة.

وهناك نوع من أغاني الحداء يستعمل فيه ضرب الطبل (الدمام) ليجتمع حوله الجيوش في منطقة واحدة قبل أو بعد المعركة حيث تنقسم الجيوش إلى ثلاث فرق (الخيل الجمال المشاة) فيقوم نفر من هذه الأخيرة بالسير في الوسط بالضرب والغناء فيتقدمه حملة الأعلام ومن خلفها (السبحاه) بالفتح أي حملة السيوف وهذا الضرب والغناء نوع من التشجيع للسير قدما نحو ساحة المعركة فمن قولهم في ذلك:

ألا لا عدت يا يوم جرى في أيمن البرقان

نهار البيرق الجائر عن الحلة معدنيه

تحانح خلقنا والخلج حانجه تبي الحيران

شعاها حس (دمام) تكفاها وكافينه

تصرفنا سموم إلقيظ لا حله ولا حملان

عسى رب بلانا بهم رحمون ما يخلينه

ألا يا شيب عيني من تنازى الخيل بالثومان

على كب تخافق جنه فروخ الشياهينه.

الهويـة العربيـة للقدس ثلاث ديانات وهوية واحدة

لا يشكك أحد في هوية القدس العربية منذ أن بناها الكنعانيون العرب منذ 2500 عام ق.م. وأطلقوا عليها اسم « يبوس » نسبة إلى أحد قبائلهم المهاجرة من الجزيرة العربية.

محمد الأسعد

استعادت مدينة القدس منذ أن افتتحها العرب في المرحلة الإسلامية في العام 636م /15 هـ طابعها العربي بجلاء. جاء هذا الفتح بعد معركة اليرموك، فوضع حداً للاستعمار الروماني للقدس ولفلسطين بخاصة وبلاد الشام بعامة. وتكرست بهذا الفتح إضافة إلى ذلك مكانة القدس كجزء من العقيدة الإسلامية، بعد أن تجلت هذه المكانة في ربط القرآن الكريم بينها وبين الحرم المكي حين تحدث عن معجزة الإسراء والمعراج: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير»، وكانت قبلة المسلمين الأولى.

الهوية العربية للقدس ظلت واحدة وراسخة تظلل الديانات،الإسلاميةوالمسيحية واليهودية، في أعقاب هذا التاريخ، على رغم تعرضها للاستعمار الاستيطاني في مراحل تاريخية أشهرها استعمار الفرنجة لمدة تقارب مائة عام (1099- 1187)، ثم استعادتها لهويتها على يد صلاح الدين الأيوبي في العام 1187، فالاستعمار البريطاني لما يقارب ثلاثين عاماً (1917 - 1948)، وأخيراً الاستعمار الصهيوني الذي بدأ في العام 1948 ومازال متواصلا حتى الآن.

في كل هذه المراحل لايشكك أحد في هوية القدس العربية، كما لايشكك في هويتها هذه منذ أن بناها الكنعانيون العرب منذ 2500 عام ق.م وأطلقوا عليها اسم «يبوس» نسبة إلى إحدى قبائلهم المهاجرة من الجزيرة العربية. ولكن لايمكن الحديث عن هذه الهوية من دون التطرق إلى محاولات تزويرها واختلاق هوية للقدس غريبة عن تاريخها والحضارة التي احتضنتها.

من ناحية التاريخ، من الملحوظ كما يذكر عدد من الباحثين على رأسهم البريطاني «كيث وايتلام»، أن تاريخ فلسطين القديمة تم إخراسه، واختلق الخطاب التوراتي تاريخاً لإسرائيل قديمة حل محل تاريخ فلسطين في الثقافة الغربية المعاصرة، ومنها انتقل إلى عدد من الثقافات غير الغربية. ومنع هذا الخطاب المهيمن العلماء والباحثين والمؤرخين من صياغة تاريخ لفلسطين القديمة، أي لهويتها الحقيقية وهوية مدنها العربية، وضلل كل الأبحاث في هذا المجال، أي تم «اعتقال التاريخ الفلسطيني» وليس تاريخ

القدس فقط، حسب تعبير الباحث «وليد الخالدي»، في الخطاب التوراتي المهيمن على دراسة تاريخ الأرض الفلسطينية.

ومن الناحية الحضارية، حسب الباحثين البريطانيين، جوناثان تب و روبرت تشابمان، أظهرت التنقيبات الأثرية والدراسات التاريخية أن تاريخ فلسطين الحضاري وهويته الكنعانية (العربية) الممتدة منذ الألف الثالثة ق.م إلى الفترة الهلينية (فترة الاحتلال اليوناني) لم يشهد انقطاعاً، بل شهد استمرارية وتواصلا.

وعلى خلاف ما يشيعه الخطاب التوراتي من أن تاريخ فلسطين القديمة، وبالتالي هويتها، ليست إلا تاريخ اليهود فيها، بدأ عدد من الباحثين في أواخر النصف الثاني من القرن العشرين بالدعوة إلى كتابة تاريخ لفلسطين مستقل عن هذا الخطاب بعد أن بدأ يتزايد ظهور أدلة على أن هوية فلسطين القديمة مختلفة تماماً عما يقدمه هذا الخطاب من صور. بالإضافة إلى تزايد انكشاف محاولات تلفيق صلات بين مرويات هذا الخطاب الدينية وبين الجغرافية الفلسطينية، مدناً وتضاريس طبيعية وأحداثاً، وخاصة في السنوات الأولى من القرن الحالي، يقوم بها تجار آثار أحياناً، ويساندها مؤمنون بأن التوراة كتاب «تاريخ» في أحيان أخرى. ويسهم في كشف تلفيق هؤلاء ومن يساندهم من باحثين وصحافيين، أساتذة معروفون منهم على سبيل المثال، نيل بيتر ليمش (الدنمرك) و فيليب ديفز (بريطانيا)،

تعرضت هوية القدس العربية لشتى أنواع التلفيقات بدءا بقصة «الهيكل المزعوم» وانتهاء «باصطبلات سليمان»

حافظ الحكام المسلمون على حقوق جميع الطوائف الدينية في القدس انطلاقا من الحفاظ على الهوية العربية الجامعة التي تستظل بها شتى العقائد والديانات.

وكيث وايتلام (بريطانيا) و توماس تومسون (الولايات المتحدة الأمريكية)، وجيوفاني غاربيني (إيطاليا).

وخصت أشهر التلفيقات هوية القدس، التي تعرضت لشتى أنواع التلفيق، بالنصيب الأوفر، بدءاً من اختلاق حكاية الهيكل اليهودي المزعوم أنه يقع تحت مسجد قبة الصخرة، وانتهاءً بالادعاء أن المسجد المرواني الملاصق للمسجد الأقصى هو اصطبلات تدعى «اصطبلات سليمان». هذه المزاعم وغيرها مما كان يمس هوية أماكن وأسوار وقلاع فلسطينية كان ينكشف دائماً، وعلى يد باحثين وعلماء آثار مثل الإيرلندي «ماك آلستر» والبريطانية «كاثلين كينون» والأمريكي «توماس تومسون»، على أنها لاتمت للحقيقة بصلة، كما أثبتت حفريات أكثر من قرن ونصف في مدينة القدس بحثا عن هيكل مزعوم تبين أن لاوجود له، أو هو مجرد تسميات أطلقها على أماكن فلسطينية مهووسون مصابون بهوس أطلق عليه حتى الآثاري الصهيوني «يوفال غورين» تعبير «لوثة أورشليم».

وقد أحسنت لجنة التراث في منظمة التربية والثقافة والعلوم الأممية (اليونسكو) صنعاً حين أصدرت في اكتوبر من العام 2016 قرارات تؤكد على هوية المسجد الأقصى وحائط البراق الإسلامية، وتنفي أي صلة مزعومة لليهود بهذه الأماكن المقدسة، بل والقدس بعامة، ويأتي هذا انسجاماً مع الدلائل الأثرية والتاريخية التي تنفي أي صلة في الماضي والحاضر بين القدس والمستعمرين الصهاينة القادمين من شتى البقاع. ويأتي أيضاً انسجاماً مع حقيقة أن حفاظ المسلمين على حقوق الطوائف الدينية في هذه المدينة كان منطلقه الحفاظ على الهوية القومية الجامعة التي تستظل بها شتى المذاهب والعقائد والديانات، أي الهوية العربية. وليس أدل على ذلك وأبلغ من أن عائلات مسلمة متوالية لا تزال تؤتمن حتى اليوم على مفاتيح كنيسة القيامة المسيحية في القدس.

الكويت 2018 - 1718

ذكرى ثلاثمائة عام لتأسيس حكم الشيخ صباح الأول
ثلاثة قرون من التوافق والاستقرار والازدهار (2)

د. طارق عبدالله فخرالدين

تشهد الكويت هذا العام ذكرى مرور ثلاثمائة سنة على انطلاقة حكم أسرة آل الصباح في عام (1718) المتميز بثباته المستمر منذ ذلك التاريخ من خلال القيادة الرشيدة والتوافق الشعبي وصلابة الجبهة الداخلية، مدعومة بالمبادرات والسياسات الحكيمة التي بلورت الهوية الكويتية المتميزة وحافظت عليها ضد الأطماع الخارجية، وطورت بلدة الكويت من ميناء صغير إلى أن جعلتها دولة تحتل مكانتها في مصاف البلدان التي تتصدر سمعتها المحافل الدولية. وبهذه المناسبة تقدم مجلة «الهوية» لقرائها سلسلة من المقالات تشمل سرداً مختصراً للمراحل التاريخية التي مرت بها البلاد عبر القرون الثلاثة الفائتة (1718 - 2018). ونود التنويه بأنه نظرا للمساحة المحدودة المخصصة لهذه المقالات، فإنها لا تشمل كافة التفاصيل والقضايا التاريخية التي يزخر بها ماضي البلاد، ذلك أنها تسعى إلى تقديم أهم ملامح الصورة الكلية المشرقة لبزوغ نجم الكويت في سماء الخليج وتطورها التاريخي عبر مئات السنين من حكم آل الصباح الكرام.

سفن الكويت وصلت الهند وافريقيا

- الكويت في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تناولنا في الحلقة الأولى من هذه السلسلة العقود التسع الأولى من تاريخ الكويت الحديث الذي ارتبط باختيار الشيخ صباح بن جابر (صباح الأول) حاكما للكويت في عام 1718، واستعرضنا ظروف تطور الكيان الكويتي من بلدة صغيرة هامشية على ساحل الخليج تتمحور حول مرفأ صغير وكونها معبرا للقوافل التي تتزود منها ببعض المؤن، إلى مشيخة تتمتع بالثروة التجارية والسمعة السياسية المتينة، مكتسبة احترام ما جاورها من القبائل والقوى. كما بينا مشهد الكويت المتألقة اقتصاديا كمحطة تجارية استراتيجية تربط الشرق بالغرب بمهارة منقطعة النظير تحت قيادة حاكمها الثاني الشيخ عبدالله بن صباح بن جابر(عبدالله الأول)، والتي امتدت حتى أوائل العقد الثاني من القرن التاسع عشر.

وفي الحلقة الراهنة نرسم

الملامح الأساسية لصورة الكويت في النصف الأول من ذلك القرن، والذي شهد انطلاقة المئوية الثانية من حكم آل الصباح تحت راية حاكم الكويت الثالث الشيخ جابر الأول.

عندما توفي حاكم الكويت الثاني الشيخ عبدالله بن صباح بن جابر في عام 1813، كانت الكويت قد برزت في المنطقة كطاقة تجارية متميزة معتمدة على منظومة أخلاقية وفلسفة سياسية راسخة، تجلت فيها قيم العمل الجاد والدؤوب، والإبداع في صناعة الثروة، وتنميتها بالتوافق مع القيم والأعراف المتوارثة ومرونة الانفتاح والتواصل مع الخارج باعتبارها المرتكز الأساسي للبقاء والازدهار.

في هذا المشهد تولى حاكم الكويت الثالث الشيخ جابر بن عبدالله بن صباح الإمارة خلفاً لوالده في عام 1713، واستمر حكمه حتى عام 1718، ممتدا لزهاء 47 سنة، تنامت عبرها قوة الكويت التجارية، وتعاظمت شهرتها كإمارة تتمتع بالاستقرار واستقلال القرار وتتعامل مع القوى المحيطة بها معاملة الند للند، بل وأكثر من ذلك، تنجد العديد من المناطق المجاورة وتعيد إليها سلامها وأمنها.

واستمدت كويت النصف الأول من القرن التاسع عشر الكثير من ملامح شخصيتها من المميزات العديدة التي كان يتمتع بها حاكمها الشيخ جابر الأول، صاحب الشخصية الكاريزمية الفريدة، مع بعد النظر والحزم في الدفاع عن

استمر حكم جابر بن عبدالله بن صباح حاكم الكويت الثالث زهاء 47 عاما. لُقب «جابر العيش» لكثرة صدقاته على الفقراء والمحتاجين.

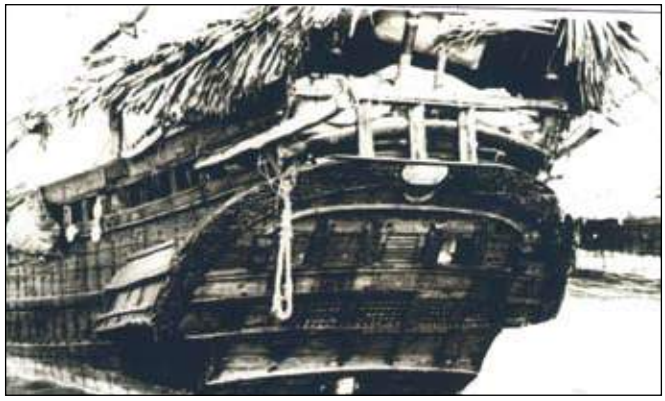

سفينة بغلة كويتية

مصالح الكويت والتعاطف مع المحتاجين من بني شعبه.

ولقد اشتهر في عصره بـ «جابر العيش» حيث وصفه المؤرخ عبد العزيز الرشيد بأنه كان «عاقلاً حليماً حازماً كريماً يضرب بكرمه المثل وقد سمي (جابر العيش) لكثرة ما يتصدق به على الفقراء والمساكين» (الرشيد ص 94).

يعزز هذه الصورة الوصف الذي أضفاه بندر السعدون زعيم قبيلة المنتفك (جنوب العراق) على الشيخ جابر بن عبدالله الصباح بأنه يستحق وصف «كريم الجزيرة العربية، فلقد كان يبسط الحصر (البسط المصنوعة من الخوص) في الأسواق ويملأها من التمن (الأرز المطبوخ) للمحتاجين وليست له واردات تغنيه (الرشيد 94 – 95). وأيد العديد من الأجانب الذين زاروا الكويت في ذلك الزمن ما ذهب إليه الرشيد « ولم تكن له من واردات غير رسوماً طفيفة يتقاضاها على بعض الأموال التي ترد الكويت».

ولقد ذكر أحد التقارير البريطانية في عام 1841 أن الدخل الذي يحققه شيخ الكويت من عوائد الميناء لا يتجاوز 3000 دولار (ريال نمساوي) (تقرير الكابتن هينيل).

امتداد الكويت التجاري

واكتفي الحاكم بهذا الدخل المحدود إلى جانب ما كان يجنيه من عائدات التمر والنخيل المملوك له في جنوب العراق على الرغم من أن الكويت كانت بلداً ثريا في عهده. وأجمعت التقارير التي كتبها المسؤولون والرحالة البريطانيون خلال حكم الشيخ جابر الأول على مكانة الكويت التجارية، ومن بينها تقرير كتبه الكابتن بروكس الضابط في البحرية الهندية البريطانية في عام 1829 أكد فيه على أهمية الكويت نظراً لما امتاز به سكانها من حب الملاحة، وقال إن لها تجارة عظيمة خاصة بها دون سواها، ذلك أنها تزود البلاد البعيدة عن الشاطئ والتي تقع إلى غربيها بالحنطة والقهوة ومنتجات بلاد الهند .

وذكر أن الكويت كانت تصدر الدهن والخيول التي تقايض بها البدو مقابل ما يحتاجون إليه من البضائع .

كما وصف سفن الكويت الشراعية بأنها من طراز «بغلة» و«الداو» التي تتراوح حمولة الواحدة منها من 100 – 400 طن، إضافة للسفن التجارية ذات الحمولة الأقل. وبين أن هذه السفن الكويتية تتاجر في مياه الخليج العربي والبحر الأحمر وسواحل الهند (عبدالمعطي : الكويت بعيون الآخرين 76).

و قدر بروكس قيمة وارادات الكويت من البضائع بمبلغ نصف مليون ريال نمساوي.

صحفي بريطاني على سفينة كويتية

وبعد سنتين من تقرير الكابتن بروكس، قام الصحفي والرحالة البريطاني جواشيم ستوكلر بزيارة الكويت في عام 1831 قادماً من مدينة بومباي الهندية على ظهر سفينة شراعية كويتية من نوع «بغلة» قال إن اسمها «الناصري»، التي وصفها بأنها تحمل البضائع والركاب وذكر أنه دفع أجرة مقدارها مائة وخمسون روبية للسفر من بومباي إلى البصرة. وأضاف أن السفينة توقفت في ميناء مسقط حيث حملت الجلود والحصر. وقال الكويت تفرض رسماً جمركياً على

جميع الواردات بنسبة 2% فقط. (أبو حاكمة ص 292)

خيرات الدنيا في الكويت القاحلة

وعلى الرغم من أن أرض الكويت كانت جرداء وتعاني من شح الموارد وندرة المياه الصالحة للشرب إلا أن عبقريتها التجارية جعلتها بلدة مزدهرة تأتيها الفواكه والمواد الغذائية من كل صوب. ويقدم لنا الملازم البريطاني فيليكس جونز في تقريره عن زيارته للكويت عام 1839 مشهداً يتسم بالحيوية، جاء فيه أن الكويت «تستورد الفواكه كالبلح والحمضيات والرمان والبطيخ من البصرة وبوشهر، والحنطة والشعير من الهند والبصرة» . وأضاف أن الكويت «تحصل على الرز من منغالور وعلى العدس من البصرة وبوشهر، والماشية والدواجن من البدو النازلين بأطراف بلدة الكويت». وذكر أن أسعار الماشية كانت تختلف انخفاضاً وارتفاعاً حسب توافرها. فلقد كانت القبائل تجلب معها الأغنام لدى قدومها إلى الكويت للاتجار، وكان الخروف الواحد يباع بدولار (ريال نمساوي واحد). وحين يندر وجودها يصل ثمن الخروف الواحد إلى دولارين (ريالين). كما ذكر أن الكويت كانت تحصل على خشب الساج اللازم لبناء السفن من مدينة بومباي (أبو حاكمة -292 293).

ميناء الكويت.. حر

أما المقيم الإنجليزي في الخليج الكابتن هنيبل الذي كان يكتب تقارير منتظمة عن تجارة إمارات الخليج بما فيها الكويت، فلقد كتب تقريراً في عام -1841 أى قبيل وفاة الشيخ جابر بن عبدالله ثماني سنوات - وصف فيه الكويت بأنها مدينة تقدم مثالاً للنجاح التجاري، وأن عدد سكانها يقدر بنحو 25 ألف نسمة وتمتلك من السفن (31) بغلة وبتيلاً تتراوح حمولة الواحدة منها ما بين 150 - 300 طن، إضافة إلى (50) سفينة صغيرة تعمل في التجارة على سواحل الخليج (تجارة القطاعة)، إلى جانب (350) قارباً صغيراً للغوص على اللؤلؤ. كما ذكر أن ميناء الكويت حر لا تفرض فيه أية رسوم جمركية، وأن شيخ الكويت يفرض ضريبة قليلة على البدو الذين يؤمون مدينة الكويت لشراء حاجياتهم، تدر عليه دخلاً يقدر بثلاثة آلاف دولار (ريال نمساوي) في السنة (أبوحاكمة 295).

جواشيم ستوكللر

وبعد ذلك بقرن، كتب الرحالة البريطاني جيمس سيلك باكينغهام أن لمدينة الكويت ميناءً عظيماً، وغالبية سكانها يشتغلون في التجارة الداخلية (في سواحل الخليج العربي ومدن الجزيرة العربية)

جيمس سيلك باكينغهام

والتجارة الخارجية (عبر القوافل والسفن)، وعملهم التجاري لا يقتصر على صنف معين، بل إنهم يتعاملون مع شتى أنواع التجارة الرابحة في المنطقة. وذكر أن عدد السفن الشراعية التجارية الكويتية - ما بين الصغيرة والكبيرة - يبلغ نحو المائة. كما أثنى على تجارة ونواخذة السفن الكويتية ووصفهم بالحكمة والمهارة والحزم والشجاعة. واللافت للنظر أيضاً إنه قدم وصفاً تفصيلياً لتجارة الخيول من الكويت إلى الهند التى قال إن حجمها السنوي بلغ حوالي سبعمائة وخمسين ألف روبية هندية (عبد المعطي-80 83). وكتب تقريره عن الكويت في عام 1816، أى بعد ثلاث سنوات من تولى الشيخ جابر الثالث حكم الكويت.

والكويت.. بوابة الخليج التجارية

تبين لنا تلك التقارير البريطانية أهمية الكويت الاقتصادية في النصف الأول من القرن التاسع عشر والدور المركزي الذي كانت تؤديه في التجارة ما بين سواحل الهند والبحر الأحمر والجزيرة العربية والشام عن طريق

السفن الشراعية وقوافل الصحراء. ولقد برزت أهمية الموقع التجاري للكويت بشكل واضح عندما انتقلت إليها الوكالة التابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية من البصرة للمرة الثانية في عام 1821 خلال أقل من خمسين سنة. وكانت قد انتقلت للكويت المرة الأولى عام 1775 إثر حصار الفرس للبصرة واحتلالها. أما في المرة الثانية، فلقد نقلت الوكالة مقرها الإقليمي من البصرة إلى الكويت إثر خلاف مع السلطات العثمانية. ويقول أبوحاكمة إن تقارير الشركة تفيد أنها انتقلت إلى جزيرة بالكويت، وإن لم تحدد الجزيرة، إلا أنه يظن أنها جزيرة فيلكا التي كانت معروفة لسفن الشركة منذ الربع الثالث من القرن الثامن عشر (أبو حاكمة ص 176). ويشير الباحث خالد سالم الأنصاري إلى أن الوكالة الإنجليزية قد تكون انتقلت إلى جزيرة فيلكا استناداً إلى رواية بعض كبار السن من أهاليها بأن علماً أجنبياً كان يرفع في الماضي في مكان أسموه تلة العلم في الجزيرة. (خالد سالم – الحياة القديمة في جزيرة فيلكا).

الثراء المسنود بالقوة

الكويت التي تمتعت تحت قيادة الشيخ جابر الأول بالقوة العسكرية – برا وبحرا – إلى جانب قوتها الاقتصادية، كانت تحشد كامل قوتها لصد الغزاة وملاحقة المعتدين على رعاياها أينما كانوا. كما قدمت المساندة القتالية واللوجستية المتنوعة للقوى الإقليمية المختلفة لإخماد الفتن وفك الحصار

انتقلت شركة الهند الشرقية من البصرة إلى فيلكا

وإمداد الجيوش (أبو حاكمة ص 190-179).

فعندما حاول بندر السعدون – زعيم المنتفك – غزو الكويت، هب الكويتيون للدفاع عن بلدهم، ورمموا سور بلدتهم الذي تهالك مع مرور المدة – حيث وصفه الرحالة ستوكلر بالبنيان الهزيل، وأنه لخداع الأعداء أكثر منه لصدهم.

ولقد أدت صلابة وعزيمة الكويتيين إلى تراجع بندر السعدون عن نواياه العدائية تجاههم، ولكنه يبدو أنه لم يعدل نهائياً عن غزو الكويت حيث زحف على أراضيها بعد ذلك بجيش كبير وأقام معسكره في منطقة ملح التابعة للكويت. فأرسل له الكويتيون من يحذره من محاربتهم «فإنهم تعاهدوا على القتال المستميت، وقد أودعوا أموالهم ونساءهم والعزيز لديهم في سفن شراعية، فإذا ما خذلوا في الميدان امتطوا غواربها إلى حيث لا تنالهم قوة الغازي». وفي محاولة للتفاوض مع السعدون قال له موفد الكويت «ما الذي يدفعك إلى هذا.. وجابر (شيخ الكويت) لا يرى بينك وبينه ما يقتضي غمار الحرب وسفك الدماء البريئة، وهو مع هذا كله مستعد لأن يقدم لك ما أنت في حاجه إليه من ذخيرة وطعام (الرشيد 95 – 96) وحسب الرواية التاريخية التي أوردها عبد العزيز الرشيد فلقد استجاب بندر السعدون لدعوة السلام التي أرسلها إليه شيخ الكويت، وتراجع عن غزوها.

ونستخلص من هذه الرواية ميل الشيخ جابر بن عبدالله الصباح للمسالمة مع استعداده للحرب، وهو في نفس الوقت لم يكن متهاونا مع من يعتدي على اي فرد من أهل الكويت ويحشد الجيوش لاسترداد حقوق رعاياه.

ويدل على ذلك قيامه شخصياً بقيادة أسطول بحري توجه لمعاقبة قبيلة النصار بسبب قتلهم رجلاً من أهل الكويت ودار قتال عنيف بين الطرفين انهزم فيه النصار وفر من بقي منهم من غير الجرحى.. «وقد حاول الكويتيون مطاردة المنهزمين فصدهم الشيخ جابر وقال: «اتركوا للذليل مهزماً» (الرشيد 96). ويروى الرشيد قصة أخرى جهز فيها الشيخ جابر أسطوله البحري وقاده لتأديب زعيم قبيلة المنتفك الذي سجن أحد التجار من رعايا الكويت وسلب أمواله. وقام أسطول الكويت بمحاصرة المنتفك في نواحي البصرة إلى أن أطلقوا سراح التاجر الكويتي وردوا إليه أمواله. (الرشيد 102).

إن تاريخ تلك الفترة حافل بالوقائع التي تدل على شكيمة الشيخ جابر الأول وحكمته، حيث يؤكد الكابتن بروكس في تقريره لحكومة الهند الإنجليزية في عام 1829 نفوذ الكويت في المنطقة: يتمتع الكويتيون بالأمن والسلام، في حين يتورط كل جنبات الخليج في النزاعات. ويدين أهل الكويت بما يتمتعون به من حركة آمنة لسفنهم عبر البحار والمحيطات وسلام يسود بلادهم، لما يحظى به شيخ الكويت من نفوذ وسلطة حيث تدين له قبائل البادية على امتداد الساحل (عبد المعطي 24).

الكويت والقوى المؤثرة في المنطقة

وقد أدركت بريطانيا والدولة العثمانية قوة الكويت الاقتصادية والعسكرية فسعت إلى حاكمها الشيخ جابر بن عبدالله الصباح تطلب العون مثلما حصل عندما «قدم عدة سفن ملأى بالرجال والمدافع والذخيرة وسار بها إلى البصرة

بنفسه في عام 1831 فكان من أعظم المساعدين على استخلاصها» من يد القبائل المتمردة على الدولة العثمانية. وكذلك قيادة الشيخ جابر لأسطول بحري إلى المحمرة في عام 1837 لاستردادها من أيدي قوات رضا باشا (الرشيد 98).

أما الحكومة البريطانية فلقد سعت إلى إقناع الشيخ جابر بن عبدالله الصباح برفع الراية الإنجليزية.. والسماح لأتباع بريطانيا بالبناء في الكويت فرفض رفضاً قاطعاً (الرشيد ص 103). ولربما يشير الرشيد إلى زيارة الملازم البريطاني ادموندز للكويت في عام 1839 (أبو حاكمة ص 229).

ولكن بريطانيا استمرت في محاولاتها لاستمالة الكويت إلى أن نجحت في إبرام اتفاقية «المهادنة البحرية» معها في عام 1841 التي وقعها الشيخ صباح بن جابر نيابة عن والده الشيخ جابر بن عبدالله حاكم الكويت. وتتعلق الاتفاقية بحفظ الأمن في البحار ومكافحة القرصنة، واللافت أنها احتوت شرطا أصر شيخ الكويت على إدراجه وهو سريانها لمدة سنه واحدة فقط. (أبوحاكمة 407)، وذلك على خلاف معاهدات مفتوحة المدة وقعتها بريطانيا مع مشيخات الخليج الأخرى.

الكويت.. ملاذ يأوي الخصوم والأصدقاء

كان نهج قبول اللاجئين بمختلف مشاربهم وتقديم الحماية لهم يمثل ركيزة أساسية في سياسة الكويت الخارجية منذ نشأتها، واستمر

TREATIES AND UNDERTAKINGS
THE BRITISH GOVERNMENT
THE RULERS OF KUWAIT
1841–1915

غلاف اتفاقيات الكويت مع بريطانيا

وُقعت في عهده اتفاقية المهادنة البحرية مع بريطانيا العام 1841 لحفظ الأمن في البحار ومكافحة القرصنة مدة عام واحد فقط.

No. 1.

قبولية حاكم الكويت بالمهادنة البحرية لأجل سنة واحدة

في سنة ١٨٤١ ع

بسم الله

المعاهدة البحرية الكويتية – البريطانية 1841

هذا النهج الذي ابتدأ من حكم الشيخ صباح الأول (لجوء كانتر) واستمر خلال حكم ابنه الشيخ عبدالله الأول (لجوء المتمردين على باشا بغداد). وواصلت الكويت تقديم الحماية للاجئين الآتين إليها إما بسبب الخلافات السياسية الاحداث المتلاحقة التي شاركت الكويت في بعضها. ويلخص أبو حاكمة نهج الكويت هذا « في أن الكويت كانت تخرج من الحدث تأوي في الغالب الخصوم والأصدقاء على حد سواء» (أبو حاكمة 191– 192)، سواء أتوا إليها من الشمال أو الجنوب أو الشرق. ولاشك في أن وجود وثبات الكويت كبقعة آمنة ومزدهرة ومستقلة تتمتع باستمرار الوضوح السياسي وتحظى باحترام كافة الأطراف في هذه المنطقة الحافلة بالاضطرابات السياسية والعسكرية، قد منحها جاذبية خاصة لكل من يشد إليها الرحال طلباً لحياة آمنة في بيئة توفر له المقومات الاقتصادية والأمنية والعدلية الراسخة.

نقطة الجذب.. التراث القضائي.

ويهم اللاجئ في المقام الأول أن يستقر في إطار مجتمعي إنساني النزعة وتوجه ثقافي يسهل التواصل معه. ولعل من أهم عوامل الاستقرار والاستمرار، إلى جانب الحاكم العادل القوي الذي كان يتمثل في شخصية الشيخ جابر بن عبدالله الصباح، هو رسوخ القضاء. فلقد اعتمدت الكويت في هذا الجانب على ما قدمته عائلة العدساني من تراث قضائي، حين عاد الشيخ محمد صالح العدساني لتولي القضاء بالتوازي مع تولي الشيخ جابر حكم الكويت في عام 1813. واستمر الشيخ العدساني في قضائه لغاية عام 1817، عندما خلفه الشيخان علي بن نشوان ومحمد بن محمود لمدة سنتين وعاد الشيخ عبدالله العدساني للقضاء الذي تولاه في عام 1819 واستمر فيه حتى عام 1857 أي مدة ثمان وثلاثين سنة تقريباً. وبعد ذلك خلفه ابنه الشيخ محمد بن عبدالله العدساني (القناعي ص 34–33).

نستقرىء من هذا الجانب العناية الفائقة التي كان يوليها الحاكم لاستقرار القضاء وعدم التدخل في شؤونه، وهو تقليد

مبنى المقيم البريطاني في بوشهر

صلب توارثه حكام الكويت من آل الصباح وحرصوا على استدامته منذ توليهم حكم البلاد.

وفي ظل هذه الديمومة برزت منارات ثقافية تهتم بالتراث النسخي للمخطوطات منها (منهاج الطالبين وعمدة المفتين) نسخها اسحاق بن ابراهيم الفارسي في عام 1844 و(ديوان المتنبي) نسخه الشيخ محمد بن عبدالله بن محمد بن فارس في عام 1845 و(مروج الذهب ومعادن الجوهر) نسخه عبد اللطيف بن عبد الرحمن التميمي في سنة 1846 و(نيل المآرب بشرح دليل الطالب) نسخه عبداللطيف بن عبدالرحمن المطوع في عام 1852 إلى جانب العديد من المخطوطات الأخرى التي يفصلها د.خليفة الوقيان في كتابه «الثقافة في الكويت» (ط 6 ص 71-72).

وصية لكل الأجيال

يقول لنا التاريخ إن فترة حاكم الكويت الثالث الشيخ جابر بن عبدالله الصباح كانت من الفترات الهامة في تطوير الإمارة وازدهارها ومنعتها في القرن التاسع عشر. ولعل فلسفة هذا الحاكم في إدارة شؤون إمارته تفسر لنا مرتكزات نجاحه في مواجهة التحديات التي مرت بها الكويت وتطويعها لصالح بلاده وشعبه.

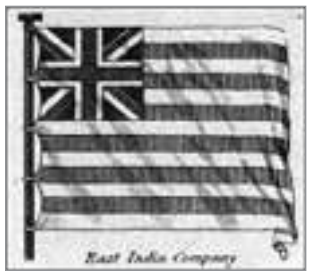

علم شركة الهند الشرقية الانجليزية

عبقرية الكويت التجارية جعلتها بلدة مزدهرة تأتيها البضائع والمواد الغذائية من كل مكان.

تاجر خيول

وتتلخص هذه الفلسفة في وصيته لابنه الشيخ الصباح، التي رواها للكولونيل بيللي ،وسجلها هذا بدوره في تقريره عن الكويت، وهي وصية عميقة الأبعاد، وصالحة لكل الأجيال، صادرة عن رجل فريد من نوعه، من الوزن التاريخي الثقيل النادر التكرار، وفيما يلي ترجمتها :

«وعندما بلغ والدي المائة والعشرين من عمره، ناداني إليه، وقال : يا ولدي، إنك تعلم أنني سأفارق الحياة. إنني أموت فقيراً دون أن أترك لك ثروة أو نقوداً، غير أنني كونت في حياتي صداقات حقيقية خالصة مع أناس عديدين. عليك أن تعتمد على هؤلاء. انظر إلى الدول المختلفة من حولك في منطقة الخليج، تجد أنها قد تساقطت بسبب الظلم أو سوء الإدارة، ولكن إمارتي كانت دوما تقوى وتتسع. تمسك بسياستي، ومع أنك بالصحراء ومحاط بقبائل كانت ذات يوم معادية، وهي مازالت حتى يومنا هذا غير مستقرة أو متحضرة، لسوف تتقدم مشيختك وتزدهر» (أبوحاكمة 205-206).

ing station between East and West under the leadership of its second ruler Shaikh Abdullah Bin Sabah Bin Jabir (Abdullah I) who reigned into the beginnings of the second decade of the Nineteenth Century. Part Two attempts at chalking Kuwait's main features in the first half of the Nineteenth Century which witnessed the start of the bicentenary of the Al-Sabah family rule under the leadership of Shaikh Jabir I, Kuwait's third ruler.

By 1813, the year which witnessed the death of Kuwait's second ruler Shaikh Abdullah Bin Sabah Bin Jabir, the country had emerged on the regional scene as an accomplished commercial power based on a well-established moral and political system which upheld serious enterprise and creative ways of wealth making in line with inherited values and traditions.

Moreover, Kuwait was characterized by a marked openness and outreach to the world, which were considered as a corner stone for survival and flourishment.

It is within this scene that Shaikh Jabir Bin Abdullah Bin Sabah, Kuwait's third ruler, assumed the country's reign in 1813 as successor to his father. His reign lasted for about 47 years during which Kuwait's commerce grew further, and the country had a firmly established reputation as a settled and independent emirate which played politics on equal footing with regional powers. Moreover, Kuwait extended military help to many surrounding towns to restore their peace and security.

During the first half of the Nineteenth Century, many of Kuwait's characteristics were inspired by its charismatic ruler Shaikh Jabir I, including his farsightedness and re-

The reign of Kuwait's third ruler Jabir Bin Abdullah Bin Sabah lasted for nearly 47 years.

He was known as Jabir the Rice Donor because of his lavish charity to the needy and the poor.

Kuwaiti Bghalah ship

J_Stocqueler

solve when the defense of Kuwait's interests was involved, in addition to the compassion with which he treated the poor and the needy. He was famed during his time as "Jabir Al-Aysh" (Jabir, the rice donor). The Kuwaiti historian Abdul-Aziz Al-Rushaid describes him was "a wise, compassionate, firm, and, generous ruler whose magnanimity became a universal example; he was known as Jabir the rice donor because he lavishly donated to the poor and the needy" (Al-Rushaid p.94).

This picture is confirmed by the description assigned to Shaikh Jabir Bin Abdullah Al-Sabah by his foe Bandar Al-Sa'doun, chief of the Muntafiq tribe (South of Iraq) who described the Shaikh of Kuwait as well deserving the tittle of the "Arabian Peninsula's most generous man, as he was in the habit of spreading straw mats on which cooked rice was piled for the consumption of the needy and the poor, while he himself had scarce financial resources "(Al-Rushaid 94-95). Moreover, Al-Rushaid's statement that Shaik "Jabir's income depended on the slight fees which he levied on some incoming goods to Kuwait" was backed up by Captain Hennell (British Resident in Bushir) who wrote in 1841 that Kuwait's "Shaikh's income was approximately 3,000 (Maria Theresa) dollars, and he spent that revenue together with the profits from his trading vessels on keeping up "a public table of plentiful but coarse description to which everyone appears to be welcome" (Abu Hakimah p.102).

Kuwait's Trading Outreach

Despite the fact that Kuwait was a rich country, its ruler was evidently satisfied with his modest income, in addition to his earnings from the yield of dates and palm trees he owned in South Iraq. British officials and travelers who visited Kuwait during the era of its third ruler unanimously reported the commercial significance of Kuwait. They included Captain George

Kuwait 1718 – 2018

"Tricentenary of Establishing the Rule of Shaikh Sabah I"
Three centuries of harmony, stability and prosperity (2)

Dr. Tarek Abdullah Fakhrel-Deen

Foreword

This year marks Kuwait's 300th anniversary of the establishment of the Al-Sabah family rule in 1718. It has maintained its steadfastness since that time through prudent leadership, popular consensus and solidarity on home front, supported by wise initiatives and policies that crystallized the distinctive Kuwaiti identity and preserved it against external ambitions. Throughout the centuries, Kuwait town has developed from a small port into an accomplished state priding itself of its reputable status in the community of world nations.

On this occasion, Al-Hawiya magazine presents its readers with a series of articles, providing an outline of Kuwait¢s historical phases over the past three centuries (1718 - 2018).

It should be noted that due to the limited space assigned for these articles, they do not cover all historical details and issues of Kuwait¢s rich past. The articles merely attempt at presenting the overall image of Kuwait¢s emergence as a rising star in the Gulf and outline its historical development under the rule of the Al-Sabah family.

Part Two - Kuwait in the First Half of The Nineteenth Century

Part one of the present series of articles dealt with the first nine decades of Kuwait's modern history which was marked by the choice of Shaikh Sabah Bin Jabir (Sabah I) as ruler of Kuwait in 1718. That part also covered circumstances surrounding the development of Kuwait's entity from a marginal town on the Arabian Gulf cost, providing a small harbor and a transit point for passing-by caravans stopping for re-supplies, into a commercially wealthy shaikhdom with solid political reputation, earning the respect of the neighboring tribes and forces. Kuwait's significance as a strategic trading post was highlighted, together with emphasizing its economic prowess and brilliance in transforming the country into a successful link-

Kuwaiti sgips reached India and Africa

wait's economic significance, and its central role in dhow and desert caravan trade between the coasts of India, Red Sea, Arabian Peninsula and Syria. Moreover its trading location became all important when the English East India Company factory moved from Basra into Kuwait in 1821. Such step represented the second move by the Company into Kuwait within less than fifty years. The first move to Kuwait took place in 1775 in the wake of the Persian siege and occupation of Basra. The Company's second move from Basra to Kuwait came as a result of its differences with the Ottoman authorities in Iraq. Abu Hakimah states that the East India company reports indicate that it moved its factory into an Island in Kuwait but did not specify which one. However, Abu Hakimah believes that it was Failaka Island which was known to Company vessels since the last quarter of the Eighteenth Century. (Abu Hakimah p.63) .

On his part, Kuwaiti scholar on Failaka, Khalid Salim Al-Ansari points out that the English Agency may have moved into the Island based on a story told by some elderly Failakites that a foreign flag was seen hoisted on a hill which they named "Tallat Al-'Alam" (Flag's Hill). [Khalid Salim Muhammad Al-Ansari, Al-Hayat Al-Qadimah fi Jazirat Failaka (Old Life on Failaka Island].

Wealth Backed by Military Power

Kuwait never hesitated to mobilize its full military strength on land and at sea to back up its economic power. Thus, under the personal command of Shaikh Jabir I, the Kuwaitis courageously defended their town, and chased belligerents who attacked their fellow

East India Co. moved from Basra to Failaka

Appendix II

Treaties and Undertakings in force between the British Government and the Rulers of Kuwait, 1841—1913.

No. 1.

AGREEMENT OF SHAIKH OF KUWAIT TO MARITIME TRUCE FOR ONE YEAR, 1841.

In the Name of God.

And God is the best of witnesses.

(L. S.) SUBAH BIN JABER.

Kuwait-Britain Maritime Agreement 1841

countrymen beyond the borders. Moreover, Kuwait provided various types of logistic and military support to different regional parties who sought to subdue rebellions and crush insurgencies. In many instances Kuwaiti forces effectively contributed to lifting sieges and blockades on neighboring cities as well as supplying friendly armies. (Abu Hakimah pp.66-72)

Shaikh Jabir followed a two-tier policy whenever Kuwaiti's interests were at stake: preparedness for war while being ready for peaceful solutions.

This was evident when the Al-Muntafiq tribe ventured inside Kuwait in 1844 under the command of Bandar Al-Sa'doun. On learning of Bandar's advancing armies, the Kuwaitis joined hands to restore their city wall which has crumbled with the passage of time, and which was described thirteen years earlier by Stocqueler that it was a flimsy structure and more for show than for protection. (Abu Hakimah 74).

The resolve displayed by Kuwaitis in the defense of their land made Bandar abandon his plan on invading Kuwait. Yet it seems that he decided to besiege its territories as he camped with his army in 'Malh' area of Kuwait. There, he received a Kuwaiti envoy who warned him against attacking the town, and explained that "the Kuwaitis were determined to fight to death, and that they have loaded their belongings, wealth, women and loved ones onboard sail ships. If they were to be defeated on the battle field, they would flee on their ships where no invader can reach them". In an attempt to negotiate with Bandar, the envoy asked him "what drives you to this, knowing that Jabir (Shaikh of Kuwait) sees no reason necessitating war and shedding innocent blood. Yet despite all what has happened, he (Shaikh of Kuwait) stands ready to cover your needs of ammunition and food" (Al-Rushaid 95-96). Historian Al-Rushaid reports that the Kuwaiti envoy's mission was successful as Bandar succumbed to the peace offer by the Shaikh of Kuwait and abandoned his invasion plans (Al-Rushaid p.96).

This episode reveals Shaikh Jabir Bin Abdullah Al-Sabah's inclination to peace in parallel to his preparedness for war while never tolerating any acts of aggression against his people, as many instances tell us that he mobilized his army to re-

Barnes Brucks of the Indian Navy who reported in 1829 that Kuwait was an important town which was known for its indulgence in local and international trade. Unlike other ports on the Gulf it had, because of its location, a "spiral" trade with inner Najd and northern Najd in the Arabian Peninsula, which it supplied with wheat, coffee and Indian produce. He also mentioned that Kuwait exported ghee and horses which were brought from neighboring Bedouin tribes, and for which they bartered certain commodities which the Bedouins could not get a home.

Brucks also reported that Kuwaiti merchants owned Baghlas and Dhows sail ships whose tonnage averaged between 100-400 tons in addition to commercial sail ships of lesser tonnage. He added that these sailed to Gulf ports and countries around the Red Sea and the Indian Sub-Continent. (Abu Hakimah 101. He estimated that the total value of goods imported by Kuwait amounted to almost 500,000 Austrian (Maria Theresa) dollars.

British Journalist Aboard a Kuwaiti Ship

Two years following Captain Brucks report, British journalist and traveler J.H. Stocqueler visited Kuwait to which he voyaged in 1831 from Bombay aboard the Kuwaiti sail ship "Al-Nasserie". This was a "Baghla" type vessel which was described by him as carrying passengers as well as freight. He mentioned that he paid 150 Rupees for his voyage from Bombay to Basra via Kuwait, and that the "Nasserie" called at Musqat where it loaded leather and mats. Stocqueler also stated that Kuwait Collected 2% customs duties on all its imports

*James Silk Buckingham_*

During his reign, a one year "Maritime Truce Agreement" was signed with Britain for the maintenance of peace and fighting pricy at sea.

(Abu Hakimah 101).

World's Bounties in Arid Kuwait

Despite the fact that Kuwait's land was arid, lacked natural resources and fresh water, yet its people's commercial ingenuity transformed it into a flourishing town which imported fruits and food items from everywhere.

British India navy lieutenant Felix Jones paid a visit to Kuwait harbor in 1839 and left a picturesque report in which he stated that Kuwait was an importer of fruits such as dates, citrus fruits, pomegranates and watermelons which came from Basra and Bushir. On the other hand, Kuwait imported wheat, barley and rice from India. He added that Basra and Bushir also supplied Kuwait with lentils. Cattle and poultry were supplied by the Bedouin neighbors whose prices varied according to seasons. Teak planks essential for ship building were imported from Bombay. (Abu Hakimah 102).

Kuwait.. A Free Port

On the other hand Captain Hennell, British Resident in the Gulf reported on Kuwait in 1841almost eight years prior to Shaikh Jabir Bin Abdullah's death, mentioning that "this town presents a singular instance of communal prosperity, although wanting in almost every advantage, excepting its magnificent harbour. Its inhabitants of nearly twenty-five thousand individuals possess thirty-one Baghlas and Bateels (sail ships) from one hundred and fifty to three hundred tons burthen which trade constantly with India. Fifty smaller vessels are employed in the coastal commerce of the Gulf, and about 350 boats engaged in fishing and on the pearl banks (Abu Hakimah p.102).

Almost twenty-five years prior to Hennell's report, British traveler J.S Buckingham reported in 1816, three years into Shaikh Jabir I's reign, that Kuwait had a 'great' harbor. He mentioned that its population is made up mainly of merchants who handle local as well as international trade that is prevailing in the Gulf area. Buckingham added that "The Kuwaiti sailors are skillful, wise and brave. Apparently Kuwait's traffic in horses was very extensive as Buckingham gave interesting details of this trade between Kuwait and India. He reported that Kuwait realized a revenue of approximately seven hundred and fifty thousand Rupees from the horse trade alone. (Abu Hakimah p.100)

Kuwait.. Gulf's Commercial Portal

British reports of the first half of the Nineteenth Century reveal Ku-

gether with its clear political vision, and the respect accorded to it by all parties in this politically and militarily troublesome region, has made the country especially attractive to anyone who headed to it seeking a secure life in an environment which offered well established economic, peaceful and judicial opportunities.

Judicial Tradition as a Main Pillar

In the first place, the refugee seeks to settle in a humanitarian oriented community which lives by the dictates of a tolerant culture where viable communication can easily take place. Besides the settled environment dominated by a fair and strong government, which was represented by Shaikh Jabir Bin Abdullah Al-Sabah, the well-established judiciary was the second pillar of Kuwait's stability. For some time, the town depended on the judicial tradition maintained by the Al-Adsani family. It was within this scene Shaikh Muhammad Salih Al-Adsani resumed his judicial duties in 1813, the same year of Shaikh Jabir's ascension to power. Shaikh Al-Adsani remained in his post until 1817, when he was succeeded by Shaikhs Ali Bin Nashwan and Muhammad Bin Mahmoud who assumed Kuwait's judiciary for a period of two years during which the young Shaikh Abdullah Al-Adsani was being groomed for the judicial duties which he administered for approximately thirty-eight years (1819-1857). Thereafter he was succeeded by his son Shaikh Muhammad Bin Abdullah Al-Adsani (Al-Qinaei pp.33-34).

The continuity and tranquility which the Kuwaiti judiciary enjoyed during the reign of Kuwait's third ruler are indicative of the solid legacy of the country's rule

Horse Merchant

The settled independent judiciary represented a solid tradition which was nurtured and sustained by Kuwait's rulers.

which was based on respect of judges since the early years of Kuwait's establishment. On another front and under the umbrella of sustained traditions, a number of cultural contributions were noted by Dr. Khalifah Al-Wagayan in his study on the evolution of the intellectual thought in Kuwait. He states that the first half of the Nineteenth Century witnessed the continuity of heritage manuscript copying such as "Minhaj Al-Talibin wa-Umdat Al-Mufteen" (The Inquirers 'Guide and Religious Edicts Reference) which was copied in 1844 by Ishaq Bin Ibrahim Al-Farisi, and the poetic volume "Diwan Al-Mutanabbi" which was copied in 1845 by 'Abdullah Bin Muhammad Al-Faris, followed by "Muruj Al-Dhahab wa-Ma'adin Al-Jawhar" (Golden Meadows and Precious Metals" copied in 1846 by Abdul-Latif Bin Abdul-Rahman Al-Tamimi. In 1852, the religious manuscript entitled "Nayl Al-Ma'arib Bi-Sharh Dalil Al-Talib" (Attainment of Goals Through Explaining The Inquirer's Guide) was scripted by Abdul-Latif Bin Abdul-Rahman Al-Mutawwa, in addition to numerous other manuscripts detailed by Dr. Al-Wagayan (6th Edn. P.71-72).

Advice for all Generations

We are informed by Kuwait's history that the era of Shaikh Jabir Bin Abdullah Al-Sabah, the country's third ruler witnessed contributions to the development, welfare, and strength of the shaikhdom. Perhaps his political philosophy points out to the principles on which he based his success in overcoming the challenges facing Kuwait and adapting them to the advantage of his own country and his people. This philosophy may be summed up by his advice to his son Shaikh Sabah, who retold it to Colonel Pelly, the British Resident in the Gulf, who in turn reproduced it in his 1863 report on Kuwait.

Indeed, this advice with its depth of vision may be said to be viable for all generations as it emanated from a rare historical figure. The advice reads as follows:

When my father was nearly 120 years old, he called me and said "I shall soon die. I have made no fortune, and can leave you no money; but I have made many and true friends, grapple them. While other states around the Gulf have fallen off from injustice or ill-government, mine has gone on increasing. Hold to my policy, and though you are surrounded by a desert, and pressed by a once hostile and still wandering set of tribes, you will flourish." (Abu Hakimah p.75).

trieve his subjects' rightful dues.

A case in point was when in 1827 Shaikh Jabir himself commanded his navy to the north western coast of Persia where he intended to penalize the Al-Nassar tribe because one of them murdered a Kuwaiti subject. The Al-Nassar were defeated in the ferocious battle that ensued between both parties, and those of them who remained alive were fleeing the battle field. Shaikh Jabir refrained from pursuing them and he ordered his army; "leave an escape route for the defeated" (Al-Rushaid p.96).

Another incident told by Al-Rushaid relates to the Kuwaiti navy which sailed to the vicinity of Basra under Shaikh Jabir's command to penalize the chief of the Al-Muntafiq tribe who had imprisoned a Kuwaiti merchant and confiscated his money and goods. Shaikh Jabir imposed a blockade on the Al-Muntafiq tribe until it released the Kuwaiti merchant and returned his belongings and money (Al-Rushaid 102).

The era of Shaikh Jabir I was full of events indicating his power and wisdom. In his 1829 report to the British government of India, Captain Brucks emphasized Kuwait's influence in the region and reported that the Kuwaitis enjoyed security and peace while other parts of the Gulf were involved in conflicts. Brucks added that the people of Kuwait owed the secure movement of their vessels across the seas and oceans, as well the peace in their country, to the influence and authority exercised by the Shaikh of Kuwait who enjoyed the loyalty of desert tribe along the coast".

Kuwait's Relations with Influential Regional Power

Realizing Kuwait's economic and military strength, both the British and the Ottomans, sought the help of its ruler Shaikh Jabir Bin Abdullah Al-Sabah, on several occasions. In this context Kuwait contributed a navy full with men, canons and ammunitions which sailed to Basra in 1831 under the personal command of Shaikh Jabir. Kuwait's assistance was instrumental in lifting the blockade imposed on Basra by insurgent tribes which rebelled against the Ottoman government in that year. Moreover, Kuwaiti's ruler headed with his fleet to Al-Muhammarah which he liberated from Redha Pasha's troops in 1837 (Al-Rushaid 98).

British_Residency_in_Bushire

Kuwait's commercial genius transformed it into a flourishing town importing goods and foodstuffs from everywhere.

On its part, the British government of India, attempted to persuade Shaikh Jabir to hoist the British flag and permit British subjects to build on Kuwait's land, demands which he categorically rejected. (Al-Rusahid p.103)

Perhaps Al-Rushaid refers here to the visit of Lieutenant Edmonds to Kuwait in 1839 (Abu Hakimah 64-71).

Nonetheless, Briatin continued its attempts to win Kuwait's alliance until it finally was successful in concluding a "Maritime Truce Agreement" in 1841, which was signed by Shaikh Sabah Bin Jabir on behalf of his father Shaikh Jabir Bin' Abdullah. The Agreement addresses "the maintenance of truce and peace against the exercise of aggression at sea". It is noteworthy that it contained a condition which the Shaikh of Kuwait insisted on its inclusion, and which restricts the validity of the Agreement to a period of one year. (Abu Hakima 183), unlike other open-ended agreements signed between Britain and Gulf Shaikhdoms.

Kuwait.. a Safe Haven for Foes and Friends alike

Kuwait's policy of granting asylum to refugees, regardless of their political and ideological orientations played a central role in Kuwait's foreign relations ever since its inception. This policy continued unabated throughout the rule of Shaikh Sabah I (Canter's refuge), and the reign of his son Shaikh Abdullah I (Rebels against the Pasha of Baghdad taking refuge in Kuwait), and similarly during the reign of Shaikh Jabir I, Kuwait's third ruler. Throughout its history, Kuwait continued to give protection to those refugees who sought asylum either due to political differences or as a result of the successive regional events and conflicts.

Abu Hakima describes this policy "as an indication of self-confidence, an outcome of Kuwait's independence from foreign powers. It corroborates the fact that Kuwait, if necessary, was prepared to defend itself against more powerful neighbors" (Abu Hakimah 71).

No doubt that Kuwaiti's existence as an independent and flourishing safe haven in this region, to-

دور الأسـرة في إكساب النشء الهوية

الزبير مهداد

تعد التنشئة في ظل الاستقرار العائلي آلية قوية لإبراز وترسيخ الهوية والقيم في شخصيات الناشئة. فبالتنشئة بين أحضان الأسرة، تتم تربية الأبناء وتنشئتهم الاجتماعية وإكسابهم الهوية والأدوار والاتجاهات والقيم المتوقعة من أفراد المجتمع، وتعلم آليات التكيف مع المحيط الاجتماعي. لذلك يُجمع الخبراء على أن الوظيفة التربوية للأسرة خطيرة، يميزها موضوعها الذي هو الإنسان الذي تحضنه في أكثر مراحل حياته أهمية. فهذه التنشئة التي من غاياتها تكوين فرد قادر على الانخراط في المجتمع والإسهام فيه، قد تحيد أحيانا عن مهمتها وغاياتها، ما ينجم عنه خلق شخصية متناقضة ومنفصمة سوسيولوجيا وسيكولوجيا تميل إلى كل أنواع الانحراف والتشرد.

ولعل أهم التحديات التي تواجه الأسرة العربية اليوم، هو إكساب النشء هوية راسخة قوية، يحتمي بها في مواجهة الأحداث والوقائع العاصفة التي تشهدها الأمة العربية.

إن التحولات الاجتماعية والسياسية التي تعيشها الأسرة العربية، أدت إلى غياب دينامية داخلية كمطلب تربوي للأسرة، وقد انعكس ذلك سلبا على بناء الهوية النفسية والاجتماعية لدى المراهقين، مع بروز حدة التمزق في بنائهم النفسي الاجتماعي، نتيجة طغيان النزعة التحكمية السلطوية على عقلية الوالدين أثناء تعاملهم مع الأبناء، اعتبارا لوضعيتهم النفسية وانشغالاتهم الذاتية بظروفهم الاقتصادية المعيشية؛ واعتبارا أيضا لتمثلاتهم النفسية الاجتماعية السلبية للطفل وللمحيط، وقد أدت مثل هذه المواقف والتمثلات إلى حالة من التمزق والاستلاب في صفوف الأطفال والشباب، وصلت إلى مستوى بروز ردود أفعال ذات صيغ انتقادية للوضع المعيش كتعبير عن عدم الرضا، تصاعد إلى تمرد وعنف على كل سلطة.

وقد كشف تقرير صدر عن BBC عن اضطراب الهوية لدى عدد من الشباب العرب المشاركين في العمليات الإرهابية، فهؤلاء المهمشون اجتماعيا يبحثون عن هوية حقيقية وراسخة، وهو ما

يجدونه في أحضان التنظيمات الإرهابية التي تمنحهم شعورا بالأهمية وهوية واضحة بدل الهوية الباهتة.

أهمية مسألة الهوية في تفسير سلوك الإرهابيين الشباب أبرزه الباحثون الذين تناولوا بالبحث سلوك شريحة من الشباب المنحدر من بلدان تتميز بهويات كثيرة، أمازيغية وعربية، وإسلامية، وعلمانية ومحافظة وتقدمية وغير ذلك، وكثرة الهويات المتاحة تجعل مسألة الهوية الشخصية غير واضحة المعالم. كما أن ادعاءات المجموعات المختلفة في هذه المجتمعات حول «الهوية» أدت إلى انقسامات كبيرة، والأسوأ أنها تؤدي إلى غياب الفخر الوطني المشترك بدمج الهويات ببعضها البعض.

فشبابنا يعانون مشاكل الهوية، فهناك من يعتري هويته الخلل، ويشعر بأنه منقسم بين هويات متصادمة إسلامية موروثة وثانية قومية غير محددة المعالم، وأخرى علمانية، فالتعصب لجانب ما، يؤدي إلى الشعور بالانفصام بين مكونات الهوية، في حين أن الهوية في حقيقتها ذات بنية مطاطية، قد تجعلها تستوعب مختلف العناصر والمكونات، وتتلاءم بحسب ظروف الزمان والمكان، وقدرة الفرد على التعاطي مع التعددية الاجتماعية، وقبوله الحق في الاختلاف، وميله إلى التسامح، يجعله أقل شعورا بتصادم هوياته. لأن الهوية المحورية

إثارة الطموح لدى الصغار يؤثر في تعزيز صورة الذات وتسلق سلم الترقي والنجاح.

للقدوة دور كبير في التعلم والتنشئة، وينبغي إحاطة المتعلم بالنماذج الناجحة المؤثرة ليكتسب الأنماط السلوكية المرغوبة والقيم العليا المطلوبة.

تترسخ أكثر وتغتني بعناصر إضافية أخرى، فيتحول المرء من البعد الأحادي القطري إلى البعد التعددي الذي يستوعب عناصر أخرى ثقافية ولغوية وسياقية إلى جانب المكونات الدينية والثقافية واللغوية الأصلية.

إن الدراسات المعاصرة التي تتناول موضوع الهوية تقتضي بالضرورة التعرف إلى دراسة الذات، كصورة الذات، تقدير الذات، بناء الذات والتحكم في الذات، والتي تشكل جوهر الهوية الفردية، لأن من بين الخصائص الأساسية للهوية التقدير الإيجابي للذات، فكل واحد منا يشعر بضرورة تطوير المشاعر الإيجابية تجاه النفس، وكذلك تجاه الآخرين، وهو عامل مهم للحياة النفسية والاجتماعية.

إن صورة الذات وهي في علم النفس عبارة عن التصوّر الذي يتخيله الشخص لنفسه أو الذي يصنعه. وهو يتقاطع مع مفهوم الهويّة الشخصية، إلا أنه يشير بصورة أكبر إلى النواحي النفسية والحالات العاطفية.

ومصادر تكوين الصورة عن الذات تنقسم إلى مصادر داخلية يصورها المرء عن نفسه، ومصادر خارجية ناتجة عن خبرات تعامل الأشخاص مع الفرد، أو ناتجة عن فهم ذاتي لتصور الآخرين عن ذلك الشخص.

فالطفل يتقبل من أول وهلة الشخصية التي يعطيها له المحيط، ويقوم عادة بالدور الذي تحدده الشخصية التي غالبًا لم يخترها إنما فرضت عليه، فالأب الذي يردد باستمرار أمام ابنه أنه غبي وكسول، سيؤدي حتمًا بالابن إلى أن يتصرف بإيحاء من هذه الصورة، فالصورة السيئة تحبط عزيمة الطفل وتشوه تنشئته وتشل فيه كل عزيمة أو طموح.

لذلك يجب على الأسرة أن تعمل على تعزيز صورة الذات لدى الطفل، من خلال مساعدته على تكوين ورسم صورة مقبولة ومحبوبة عن ذاته، وعلى الوالدين أن يزودانه من خلال مواقفهما اليومية بمواصفات وأبعاد الصورة التي تشكل الأساس للشخصية، حتى يكتشف الطفل تفرده عن غيره ومزاياه ومهاراته التي تميزه ويختص بها. فكل طفل يمتلك خصائص فريدة من نوعها ومواهب شخصية وخيالاً وطباعًا وعواطف وقوى للملاحظة، وقابلية للتحرير والتحليل والإنتاج، ويكون ذلك كله مصدر اعتزازه ومطية تواصله وتفاعله مع غيره.

إن إثارة الطموح لدى الصغار يؤثر في تعزيز صورة الذات لديهم، ويلهمهم وضع سلم الترقي والنجاح، ويساعدهم على تسلقه، لأن الإشارة المشجعة حافزة على بذل الجهد ومواصلة المثابرة، وعلى رسم مسار حياة مستقبلية تتأسس على الاجتهاد.

فينبغي أن يوحي الأب أو الأم أو غيرهما للطفل قولاً أو فعلاً بأنه يصلح للدراسة وقادر على النجاح والتفوق والإبداع، فبالإثارة المشجعة تعزز الأسرة صورة الذات المكتسبة، وتحرك في الطفل دينامية طامحة تسعى لتجسيد أنماط الشخصية الإيجابية الموصوفة والمقتدى بها.

أما حين تقدم الأسرة للطفل أنماطا ونماذج يمكنه الاقتداء بها، فإنها، بذلك، تقترح عليه أمثلة جاهزة لتقليدها، وبطريقة غير مباشرة توضح له المواصفات التي ينبغي التحلي بها. ومن المعلوم أن التقليد يؤدي دورًا مهمًا ومؤكدًا في اكتساب الطفل من خلال محيطه الأمثلة والأنماط السلوكية، وكلما كانت الأنماط حقيقية ومعروفة لدى الطفل، كان

تقليدها سهلا عليه، لذلك يستحسن أن تكون هذه القدوة والمثل الأعلى للطفل شخصية وطنية، حققت إنجازات بارزة في الحقول الأدبية أو الفنية أو العلمية، أو في خدمة الوطن وحمايته، أو في العمل الخيري والاجتماعي والسياسي الوطني.

فالتقليد مهم ولازم وضروري في سبيل التعلم والتنشئة، لذلك ينبغي إحاطة المتعلم بالمثل العليا التي تشكل الإطار المرجعي في السلوك والقواعد والمعايير التي على أساسها ينبغي أن تتخذ المواقف. فهذه المثل العليا ستكون منطلقًا لتكوين الصورة المرغوبة عن الذات من خلال الطموحات المتسامية باستمرار.

الثقة والاستقلالية

لا يمكن تعزيز صورة الطفل عن ذاته أو إثارة طموحه إلا في جو من الحرية والثقة والمحبة. ومن ذلك إتاحة الفرصة للطفل للتعبير عما يريد، وحثه على إبداء رأيه في كل المشكلات المطروحة للنقاش، واحترام الرأي الذي يعبر عنه، وتعويده وتشجيعه على اتخاذ القرار بنفسه، بعد توضيح مبرراته وحيثياته وموجباته. وفي ذلك تلبية لحاجات الأطفال إلى الاستقلال التي تعد بحق أهم حاجاتهم النفسية خلال الفترة العمرية التي يشارفون فيها مرحلة المراهقة.

إن محبة الأبناء تُمنح دون قيد ولا شرط، والتوجيه الحسن يتطلب من الوالدين أن يضعا تجربتهما وخبرتهما رهن إشارة الأطفال، واستحضار علامات، لكن بمرونة كبيرة، يمكن مناقشتها مع الطفل، مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصيات كل وضع وطبيعة الطفل المتطورة.

فوظيفة الوالدين هي أن يساعدا الأبناء على مواجهة مشاكلهم لا إلى حلها بالنيابة عنهم، ودفعهم إلى إصدار القرارات التي تهمهم بدل التقرير نيابة عنهم وفرض اختياراتهم في غيبتهم. ومن خلال ذلك نستطيع أن نصل بأطفالنا في سن مبكرة إلى ممارسة مفهوم المسؤولية والواجب في السلوك والتصرفات، ما يؤدي إلى امتلاك الاعتماد على النفس والسيادة الذاتية، وبالتالي إلى أداء الدور الاجتماعي الرائد بحيث يساهم في صون المجتمع من كل انكفاء أو اتكال.

تلبية حاجات الأطفال إلى الاستقلال والثقة والحريّة من أهم الحاجات النفسية في تعزيز قدراتهم وانتماءاتهم.

خلاصات

إن الوطن يعول على الأسرة، باعتبارها مؤسسة اجتماعية مهمة ساهرة على تنشئة جيل قادر على استخلاف الأجيال السابقة، وحمل مشعلهم، ومواصلة مهامهم في بناء الوطن وصونه وتنميته وإحلاله المكانة الملائمة. فيجب على الأسرة أن تغرس في الأطفال حب الوطن والدفاع عنه، والتآخي الاجتماعي، وندفعهم إلى الانخراط في حماية الملك العام، وخدمة المواطنين، وترسيخ السلم والاستقرار الاجتماعي، والأمن العام. حتى تتكون لديهم هوية راسخة وطنية تكون مبعث فخرهم واعتزازهم.

إن تشكل هوية ذاتية راسخة وواضحة المعالم ينعكس على شخصية الفرد التي تكون أيضا قوية وواضحة، كما أن الهوية الواضحة تكون مصدر فخر واعتزاز لحاملها، تقوده بالتالي إلى الاعتزاز والفخر الوطني، ويمكنها أن تشكل درعا واقيا لحماية النشء من الانزلاق نحو الاستجابة للدعوات المغرضة إلى العنف والإرهاب والتي تخاطب العاطفة الدينية للنشء أو تستغل ظروفهم الاقتصادية أو الاجتماعية.

كيف تصنع ثقافة الاستهلاك وقيمه هويات وهمية ؟!

كل ما هو جميل ورائع يتراجع أمام انقضاض كل ما هو حديث وسريع ،وبذلك يتم طمس الماضي تدريجيا.

د. إبراهيم ياسين

تعد ظاهرة الاستهلاك من الظواهر التي رافقت الإنسان منذ تواجده على سطح الأرض، وقد ارتبط هذا المفهوم بمفاهيم أخرى كالإنفاق والشراء والبيع والربح والإنتاج والتسويق والإشهار. ومع اعتماد المجتمع الرأسمالي الصناعي على التسويق كأحد الأعمدة في قيام المجتمعات الحديثة ونموها وازدهارها، ومع تنوع أشكال الاستهلاك من استهلاك وسيط إلى استهلاك نهائي، ومن استهلاك تدريجي إلى استهلاك جزئي، ومن استهلاك للسلع إلى استهلاك للخدمات، وارتباط ذلك كله بسياسات التسويق الشرسة وخلق الحاجيات الوهمية المتجددة وتدخل وسائل الإعلام العملاقة في الترغيب تارة والتهويل أخرى، فقد عمد بعض الباحثين إلى دق ناقوس الخطر أمام هيمنة هذا الوباء الخبيث، حيث اهتم بالموضوع علماء الاقتصاد والاجتماع والأنثروبولوجيا وعلماء النفس والتربية والفلاسفة وعلماء الإعلام... وتدوولت مصطلحات من قبيل «وهم التسوق» و«سيكولوجية المستهلك» و«إدمان الاستهلاك»، و«الشراء اليوم بأجرة الغد»، و«الرغبات الوهمية» و«سيكولوجية السوق» أو «علم نفس السوق»، وغيرها من المفاهيم والمصطلحات... حيث استعملت في ذلك كل الوسائل والطرق، الجائز منها والمكروه، بغية إفراغ العقول والجيوب والقلوب، فتحول المستهلك إلى ريشة في مهب ريح العولمة الشرسة. يشتري بما يملك وبما لا يمتلك، ويقتني ما يحتاج إليه وما هو في غير حاجة إليه من السلع والمواد والخدمات، ويستهلك الأخبار

والأنباء والمعلومات والصور والأصوات والوجبات السريعة، والمتع العاجلة (مشاهد وصور وأفلام...)؛ المضر منها والمفيد، وتراكمت السلع بعضها فوق بعض بما يفوق الحاجة، وتتابعت الأخبار والإعلانات كالسيول الجارفة ترافقها الصور الملونة الناصعة لتقتحم العقول التائهة والقلوب الضعيفة... حتى غدا المستهلك تائها مفتقدا لما قد يحدد هويته وسط هذا التيه العجيب.

وقد أثار انتباهنا مقال كتب في النصف الأول من القرن العشرين، وقبل استفحال هذه الهجمة الشرسة، كتبه الأديب الكبير أحمد أمين، وعنونه: بـ«لذة الشراء»، ونشره في كتابه: «فيض الخاطر»، حيث يقول في مقطع منه، محدثا صاحب المكتبة، وقد رآه تائها وسط الكتب التي تراكمت عليها الأغبرة، فضحك منه: «لا تضحك - يا سيدي - فإنما هي لذة الشراء أصيب الناس بها جميعا، وإن اختلفوا في مقدار الإصابة، فقد تهور فيها قوم، واعتدل فيها آخرون،؛ وهي ظاهرة في منتهى القوة والغرابة، تتجلى بأجلى مظاهرها في الهواة؛ فهذا هاوي سجاجيد يجن جنونه إذ يرى سجادة قديمة...»..

ويتابع حديثه حتى لكأنه يتحدث عن حالنا نحن، فيقول: «هذه اللذة - لذة الشراء - يستغلها أرباب «المزاد»، فهم يثيرونها إلى أقصى حدودها، ويبلغون بها مبلغا جنونيا، فتحتدم اللذات، ويخضع الشارون لتأثير الاستهواء، ويغالون في أثمان ما يعرض حتى قد تفوق أثمان الشيء الجديد... ومن أغرب ما في هذا النوع أنك

الاستهلاك الجبري بسبب شركات تآمرت على البشر ليسهل استغلالهم وخلق ما يسمى عبودية السلعة.

ترى الكثيرين يندمون إذا اشتروا، ويندمون إذا لم يشتروا.».. وهو ما يشبه ما يلجأ إليه البائعون في الزمن الحاضر حيث تتنوع أشكال العرض وتتنوع بطاقات الائتمان ويتم التشجيع على الشراء برواتب الشهور المقبلة وربما السنوات القادمة. ثم يحلل هذه الظاهرة تحليلا نفسيا بديعا حين يقول: «ولذة الشراء هي السبب في أنك تشتري لزوجتك وبناتك الثوب الجميل، أو الحذاء الظريف، فتعرضه عليهن فلا يعجبهن، ثم يخرجن ويشترين ما هو أقل منه جمالا وظرفا ويعدن راضيات...»..

ويفسر الأمر بأنك حين تشتري للشخص فإنك تحرمه لذة الشراء.. ويتناول، بعد ذلك، حب الامتلاك للأشياء.

وموضوع الاستهلاك هذا، هو ما نود تناوله من خلال الكتاب الجماعي: «ثقافة الاستهلاك - الاستهلاك والحضارة والسعي وراء السعادة.». وهو عبارة عن مجموعة من المقالات تتناول كل مقالة جانبا من جوانب «الاستهلاك». يقول روجر روزنبلات المحرر في مقدمة الكتاب: «أن تمتلك أو لا تمتلك، هذا هو جوهر النزعة الاستهلاكية في أمريكا، ومحرك الرأسمالية الغربية.».. ويؤكد بأن هذا الأساس رغم غرابته فإنه فعال: إذ «إن 90% من قوة العمل الأمريكية هي، بشكل مباشر أو غير مباشر، في الأعمال التجارية لإنتاج السلع الاستهلاكية، والخدمات. وتشكل المنتجات الاستهلاكية ما نحن عليه.»..

ويلاحظ بأنه حتى في حالة التعبير عن الندم من خلال الحديث عن «الإفلاس الأخلاقي» و«الفقر العاطفي» عند انتقاد ثقافة الإسراف في الإنفاق يتم توظيف مصطلحات مالية، «كما لو أن مسائل الروح، مثل السلع الأخرى، يتم فهمها بشكل أفضل باستخدام مصطلحات مالية.»..

والتفسير الذي يقدمه محرر الكتاب هو أن: «ما يدفع النظام هو التناوب الدائم والمستمر بين التملك والتطلع، والذي في رأيي، يجعلنا في حالة مستمرة من عدم السعادة، سواء كنا نشعر بذلك أو لا... وعندما نفدت منا الحدود الحقيقية، جعلنا الحد أشياء أخرى لا تُمتلك.»..

إن مشكلة «إشباع الشهية، أو عدم إشباعها»، تبدو مشكلة خاصة بالشعب الأمريكي، كما يعترف المؤلف..

ويزيد الصورة توضيحا، حيث: «تتراكم كتالوجات تبيع كل شيء... كما لم يحدث من قبل، وذلك بفضل البيع بالدين الذي تقدمه شركات بطاقات الائتمان.»، بل ويضيف بأن هناك: «أشياء للبيع لم تكن للبيع من قبل.»..

ويقدم كمثال على ذلك، مشاهدة مباراة في كرة القدم حيث الإعلانات في مختلف جوانب الملعب، فضلا عن الإشهار الذي يعلن أن المباراة برعاية شركة معينة ومنقولة تلفزيونيا عبر شركة معينة أخرى. ويستشهد بحالة الزواج التي تمت عبر الإعلان عنها

كأنها صفقة بيع.. وتزداد المعاناة إذ: «أصبح المواطنون العاديون، مثل المنفقين الكبار في الماضي، يذهبون في سعي يائس وراء أشياء جديدة يشترونها ويتطلعون إليها.. ويستشهد بأمثلة لأغنياء في الماضي، اشتروا أشياء غاية في الترف وكان حظهم السخرية، لتتحول الأمور في الوقت الراهن إلى النقيض، ويفسر الأمر بأنه، «مع كل عملية شراء، تكون هناك دائما بعض المشتريات بعيدة المنال.».. حتى كأن الأمر بحث مضن عن المستحيل، وإن كان الأمر غير مبرر.

وفي مقاله المعنون: «عالم واحد من المستهلكين»، يتناول وليام جرايدر الحديث عن رحلته إلى مصنع لقطع غيار الطائرات بإحدى قرى الصين، وعن رحلته إلى كل من ماليزيا وكوريا، ويتأسف لما لاحظه من تسارع محموم باتجاه الأخذ بالنموذج الأمريكي في الحياة، حيث السرعة في كل شيء، ويشير إلى أن هذه الارتباطات: «بفن الصنعة الأمريكية، بطبيعة الحال، مجرد ضرب من الجنون.».. وتنبأ بوقوع مأساة مروعة قادمة، حيث أصبح كل ما هو جميل ورائع: «يتراجع امام انقضاض كل ما هو حديث وسريع. وهكذا يتم طمس الماضي تدريجيا.».. كما تناول بالحديث، الاختناقات المرورية التي بدأت تعرفها المدن الآسيوية وتناقص مياه الآبار والأنهار وانتشار أكياس البلاستيك في كل مكان. بل وتدهور المجال الطبيعي بشكل مرعب. وحمل مسؤولية ما يحدث من كوارث بيئية للأغنياء وعلى رأسهم بلده أمريكا. بل وتأسف لمجموع الغابات التي تمت إزالتها لتوفير

المستهلك ريشة في مهب ريح العولمة ليشتري بما يملك وبما لا يملك.

سواري السفن، والغابات التي تم قطعها لتوفير الأراضي الزراعية في مناطق كثيرة من العالم مما أحدث فيضانات رهيبة وأحدث تآكلا في التربة.. وعبر الباحث عن تخوفه من انضمام الصين إلى عصر السيارات على غرار أمريكا، وهي بلد أزيد من مليار نسمة من البشر، واعتبر ذلك كابوسا.. وعبر عن تفهمه رغبة الفقراء في امتلاك المزيد من وسائل الرفاهية أسوة بالأغنياء، رغم ما يمكن أن يعنيه ذلك من مزيد تدمير للطبيعة..

ويعترف بأنه: «لا يمكن للأمريكيين التنصل من مسؤولياتهم عن المعضلة العالمية، وبإلقائهم اللوم على مشاعر المواطنين المتخلفين في البلاد الفقيرة، أو على جشع بعض الشركات متعددة الجنسيات.». لأن المصانع التي تنتج السلع في البلاد النامية إنما تنتج لأغنى المستهلكين في البلاد الغنية..

ويضيف بأن: «الأزمة المالية، التي بدأت في تايلاند وانتشرت في أرجاء جنوب شرق آسيا، ليست آسيوية حقا لكنها عالمية.»..

ويؤكد الباحث بأن الشركات الأمريكية والبنوك هي من كانت وراء فقاعة الاستثمار الزائد عن الحد، مما أدى إلى الانهيار، ويصرح بأن المرء لا يحتاج: «للتجول في تلك الأماكن البعيدة، ليرى أن الأزمة العالمية للاستهلاك هي حقا، أولا وفي المقام الأول، أمريكية. إن نموذجنا هو الذي يعمل به الآخرون.»..

وأخيرا يختم القول بأنه إذا كان الإبداع البشري هو ما يؤدي إلى تحطيمنا، فبالتأكيد يستطيع أن يخترع وسيلة للخروج من المعضلة..

وفي مقال: «ماذا حدث في المجتمع الاستهلاكي؟ الإنفاق التنافسي والنزعة الاستهلاكية الجديدة» ل«جوليت شور، تشير الباحثة إلى أن ثمة استياء قويا من جانب الرأي العام فيما يختص بالاستهلاك المتزايد للمجتمع الأمريكي وقد: «فشلت جميع المناقشات الفكرية ضد المجتمع الاستهلاكي، في الحصول على تأييد شعبي واسع.»..

وأكدت على أن السؤال حين يطرح على رجال الاقتصاد فإنهم يجيبون بأنه لا مشكل في الاستهلاك بدعوى أنه يوفر منفعة للمستهلك، وأشارت إلى التغير الذي لحق الأنماط التي يتم توظيفها لتحديد الطبقة الاجتماعية مع ما رافق ذلك من تنوع في ما يستهلك واختلاف في كيفية حدوث الاستهلاك..

وأكدت على أن دور الإنفاق في إحداث بعض التفاوت بين الطبقات هو دور حديث النشأة، فقد تأسست العلاقة بين السيولة النقدية والمكانة الاجتماعية، «وما يجعل الإنفاق يلعب دورا بارزا في إنشاء المركز الاجتماعي والهوية الشخصية، هو التحضر، والتعليم الرسمي، واختفاء العلاقات الاجتماعية التقليدية.».. وبالتالي نتجت عن ذلك ضغوط على الطبقات الدنيا لاستخدام دخلهم «من أجل الوصول إلى فئة اجتماعية مرغوبة، وإذا حدث الفشل في اللحاق بالطبقة المتوسطة، تكون الضغوط مكثفة. ويمكن أن تكون الضغوط على الأفراد والأسر، لكي تنفق من أجل تحقيق وضع ما، ضغوطا مكثفة..

وحول التغير الذي وقع، توضح أنه: «يستلزم الآن الانتماء إلى طبقة اجتماعية معينة، تستهلك مجموعة من السلع والخدمات الضرورية. وفي مثل هذا العالم، هناك دائما عملية ديناميكية يتم عن طريقها تحديث، هذه المجموعة وتوسيعها وتعديلها من السلع والخدمات. ويشار إلى هذه العملية الديناميكية في الاقتصاد، باستهلاك الوضع، أو استهلاك المكانة، أو الاستهلاك النسبي، أو في لغتي الاستهلاك التنافسي.»..

وتزداد الأمور تعقيدا حين يؤدي الاستهلاك إلى الرفاهية والرضا ليس على أساس مستواه المطلق، «ولكن دائما في علاقته بمستوى الاستهلاك الذي حققه الآخرون.».. بحيث يشكل هؤلاء الآخرون ما أطلق عليه علماء الاجتماع «مصطلح مجموعة مرجعية». وهكذا، فعندما يحصل جاري على منتج جديد، ينخفض مستوى رفاهيتي، وذلك ليس إلا بحكم تخلفي نسبيا. ومن أجل أن أتفادى هذا الانخفاض، يجب علي أن أشتري أنا أيضا هذا المنتج الجديد، وبالتالي «مواكبة الأمور».:».. هنا تنشأ حاجة جديدة، وهي ضرورة الحصول على المعلومة حول مقتنيات جيراني، لتتسع الحاجة إلى معرفة ما يقتنيه الأغنياء في وقت لاحق، وذلك عبر وسائل الإعلام والتلفاز وغيرهما.. ومن خلال هذه المعطيات فقد تم تقسيم المقتنيات إلى ما يراه الزائرون

وبالتالي يحدد المكانة الاجتماعية، وبين ما لا يرونه. تقول جوليت شور: «أما المدخرات، ووقت الفراغ، والتأمين، والأثاث المنزلي، والأجهزة التي لا يراها الزائرون، فتلعب دورا صغيرا في عملية منح المكانة الاجتماعية. ويعني الفرق بين سلعة يراها الجميع، وأخرى لا يراها أحد.»..

ينتج عن ذلك كله أن يُخفض المستهلكون من نفقاتهم على المنتجات التي لا تبرز الوضع الاجتماعي في مقابل المنتوجات التي ترفع من مكانتهم. إضافة إلى ذلك فقد توسعت الجماعات المرجعية وازداد أفق التطلع ونتج عن ذلك ما اصطلح عليه بالاستهلاك التصاعدي..

وقد استخلصت الباحثة من خلال استطلاع لها أن ازدياد مشاهدة التلفزيون يؤدي إلى مزيد من الإنفاق وبالتالي إلى مزيد من الديون. وقد زاد الاعتقاد لدى الناس بأن السلع المادية لها قدرة على توفير الحياة الجيدة، ونتج عن ذلك أن ازداد الفرق بين ما يتطلع إليه المستهلكون والدخل المتاح لهم، مما خلق ما اصطلح عليه: «فجوة التطلع.»..

لقد كانت النتيجة أن غالبية المستهلكين يجدون «أنفسهم في حالة إحباط بسبب أن دخولهم غير كافيةٌ.». لتحقيق تطلعاتهم مما مهد لسلوكيات استهلاكية من قبيل انخفاض الادخار وارتفاع ديون بطاقات الائتمان والزيادة في سرقة المتاجر من أجل الحصول على سلع الرفاهية، وحدوث ما سمي ب»متلازمة الشراء الجبري»، وتضعضعت القيود الدينية والأخلاقية. خاصة وأن الزيادة في الإنفاق - كما تؤكد الباحثة - تترك المستهلكين في الوضع نفسه مما يوقعهم في حالة من هزيمة الذات وشعور بعدم الراحة..

وفي مقال: «الاستهلاك من أجل الحب» نجد الباحث إدوارد إن. لو تواك، يقف موقف المنتقد لثقافة الاستهلاك لدى المواطن الأمريكي، حيث يؤكد بأن الأمريكيين يعلنون حبهم للحرية الفردية، ومع ذلك «فإنهم مستعدون لبيع أنفسهم للشيطان من أجل مجرد تجميع كل ما ليس من الأساسيات... ولكي يدفعوا مقابل عادتهم الشرائية، يعمل الأمريكيون، خلال عام، ساعات أكثر من أي شعب متقدم آخر على وجه الأرض...».. مضحين بأوقات الفراغ وبالتالي حريتهم الشخصية وحياتهم العائلية، «في الواقع، لا يختار كثير من الأمريكيين العمل من أجل الشراء - فهم يجب أن يعملوا ليدفعوا الفوائد، وليسددوا أصل الدين على ما قاموا بشرائه بالفعل.»..

ويصور الباحث وضعية الإنفاق في أمريكا مقارنة بغيرها من الدول، حيث يشير إلى أن نسبة الادخار لدى الصينيين تصل إلى نصف دخلهم الشهري في مقابل الثلث لدى اليابانيين والربع لدى الأوروبيين، في حين «يوفر معظم الأمريكيين، أقل القليل، ويقترضون بكثرة، من كل المصادر الممكنة؛ من مصدر بطاقات الائتمان بفائدة عالية جدا، ومن مصادر تسليف الإسكان، مع المجازفة بفقد مساكنهم...»..

ويحدد السمة المميزة الأولى للدين الأمريكي في الأبعاد الجامحة التي تستمر في الازدياد، حيث «بحلول منتصف 1997، وصل مجموع الدين لجميع الأسر الأمريكية إلى مستوى غير مسبوق، وهو 89 % من إجمالي دخل الأسر.».. وتتمثل السمة الثانية في أن المديونية الأمريكية منفصلة عن الفقر، بمعنى أنه إذا كانت الشعوب الأخرى تقترض بسبب الفقر فإن: «معظم المقترضين الأمريكيين ليسوا فقراء على الإطلاق.».. أما السمة الثالثة فهي الاستخدام الخاص للمبالغ المقترضة، ففي حين يقترض الفلاحون الهنود لإطعام أسرهم بسبب الرياح الموسمية، فإن الأمريكيين يلجؤون إلى القروض العقارية من أجل شراء سيارات باهظة الثمن، «والاقتراض بفائدة 18%، أو أكثر، لشراء الملابس الفاخرة هو أمر مألوف في الحياة الأمريكية. أما ما هو غير مألوف بأي حال من الأحوال، هو استنفاد الحد المسموح به في الرهن العقاري للمرة الثانية، لشراء سيارة فخمة، دون ترك أي هامش للوقاية من العوز والفقر.».. الشيء الذي ينتج عنه أن الكثير من الأمريكيين لا يستطيعون النوم ليلا، «يتساءلون بخوف عن ماذا سيأتي به الغد.»..

يضاف إلى ما سبق عامل مهم وهو الربط الأمريكي بين الأخلاقيات والجشع، بحيث أن الفضيلة تكافأ بالثروة. ويؤكد بأن معظم الأمريكيين يعيشون بدون أي دعم عاطفي. فهم محرومون عاطفيا، ويعانون من الفقر في علاقاتهم الأسرية، «تماما مثل ما يعاني الأفغان والسودانيون، من الفقر من الناحية المادية.»..

ويصور الباحث التفكك الذي تعاني منه العائلات الأمريكية (الأعمام والعمات والأخوال والخالات...)، «وحتى الأشقاء يحدون من مسؤوليتهم تجاه بعضهم البعض. ولدى عدد ليس بقليل من المشردين، الذين عثر عليهم أمواتا بعد ليلة شتاء باردة، إخوة، أو أخوات يعيشون في رغد من العيش، لكنهم تحرروا من جميع أعباء الأخوة منذ فترة طويلة.»..

ويصور المعاناة والعزلة التي يعاني منها العديد من الأمريكيين. وفي الوقت الذي يلجأ فيه البعض إلى الكنائس أو تشكيل طوائف عوض الانتماء إلى الأقارب، نجد منهم من يلجأ إلى الإدمان للكحوليات والمخدرات.

وبما أن هذه الحلول لم تكن كافية فقد لجأ آخرون، رفعا للروح المعنوية، إلى الشراء المستمر للهدايا وتقديمها لأنفسهم. مستعينين بكل الوسائل من إعلانات وكتالوجات ورسائل بريدية....

وفي مقال «روابط زائفة»، ينتقد الباحث أليكس كوتلويتز التخطيط الأمريكي الخاطئ من خلال ملاحظته للتناقض الصارخ بين الأحياء الراقية، حيث البنوك والإعلانات الضخمة في شارع شيكاغو إلى جانب المناطق المحيطة حيث تختفي المقار وتنتشر العصابات ليلا... ليعلق بالقول: «هذا هو الفساد، نتاج الحضارة، وهذه فيما يبدو هي بقايا النسخة الأمريكية للفقر، وهو ليس فقط «فقر الجيوب» لكن أيضا... هو «فقر النفوس»..

ويقف عند بعض الأحياء المعزولة عن كل المدن المركزية حيث يطلق تجار المخدرات النار بعضهم على بعض مما يؤدي إلى إصابة الأبرياء. ويقف عند البؤس

الذي يعيشه صبيان هذه الأحياء المهمشة حيث: «هم مستهلكون بقدر ما هم سلع مستهلكة.». وانتقد ماركات الأحذية من صنف ريبوك وفيلا ونايك واعتبرها سببا في إفلاس جيل بأكمله.. وتؤكد إحدى صاحبات شركات البيع أنه بالنسبة لكثير من المراهقين: «ما يرتدون هو الذي يدل على ماهيتهم، لأن ذلك هو كل ما يربطهم بباقي المجتمع الأكبر. إنه رمز لوضعهم.». إلا أن الباحث يؤكد بأن حقائب كوتش التي يحملونها وقمصان تومي هيلفيجر وغيرهما: «لا تغير شيئا من الواقع القاسي لنموهم كفقراء وسود.»..

في ظل هذه الأوضاع يتحول فقراء المدينة إلى أكثر من كونهم مجرد مستهلكين إلى وسائل لترويج السلع، في حين يميل الذين ليس لديهم شيء يتحكمون فيه، إلى الموضة. أما الصبية السود الفقراء فإنهم يعتقدون بأنهم من خلال شراء الماركات الرائجة وترويج المخدرات، يستطيعون تجاوز وضعهم البائس.. لكن أنى لهم ذلك ؟!

وفي مقال باهاراتي موخيرجي، «الاستهلاك والأمريكيون من أصل أسيوي»، تسعى الكاتبة إلى الوقوف على تجربة مهاجر هندي في تورونتو بكندا أسس مطعما للمأكولات. وتناولت بالتحليل تاريخ هجرة هنود جنوب آسيا إلى كل من كندا والولايات المتحدة، وصورت الازدواجية التي يعانون منها جراء عيشهم حياتين؛ الحياة الأمريكية في العمل والحياة الهندية في بيوتهم، في حين التجأت ربات البيوت الهنديات، لتحقيق الشعور بأهميتهن، إلى مراكز التسوق..

شكّل الإنفاق ضغطا على الطبقات الدنيا لدوره في تحديد المكانة الاجتماعية ومدى توفر القوة الشرائية.

وينتقل بنا بيل ماك كيبينه، من خلال مقاله: «استهلاك الطبيعة» إلى تناول محنة سكان جبال أديرونداك في شمال نيويورك مع الذباب الأسود والناموس خلال أغلب فصول السنة، ويسرد المحاولات المتعددة للقضاء على هاتين الآفتين، لكن دون جدوى، منتقدا أنانية الإنسان التي جعلته يعتقد أنه مركز في الكون.. وتؤكد بأنه: «يمكن إشباع رغبات المرء بأقل ضرر ممكن أن يقع على النظام الأساسي للكون.»..

وفي مقال: «قانون حماية حقوق مستهلك الأنباء الإخبارية» سوزان براون ليفين: نجد الباحث يركز على انتقاد الدور الذي تقوم به الصحافة في تخريب حياة الأشخاص، بطرق مختلفة من خلال جذبهم إلى المعلنين ليتحولوا إلى مستهلكين. وتحولت مهمة الصحافيين إلى أسلحة تنهش في الشخصيات المهمة، وتعمد إلى السخرية من الآخرين ووضع ميكروفونات في وجوه الذين تعرضوا لأحداث طارئة، وفي المحاكم يعمدون إلى الكشف عن قضايا حتى قبل أن تقول العدالة كلمتها.. الأمر الذي اضطر المتضررين إلى اللجوء إلى القضاء. وحين تكبدت كثير من وسائل الإعلام خسائر بسبب أحكام التعويض بدأت تتردد في نشر الأخبار، الأمر الذي جعل المتلقين يحرمون من كثير من المعلومات..

وتناول المبادئ المقبولة للحصول على الأخبار المسؤولة، والتي تتجلى في أن يكون الصحافي شجاعا متأكدا من كل الحقائق الضرورية، منصفا، موضوعيا، ساعيا إلى الحكمة في نقل الأخبار، مسؤولاً، إضافة إلى أنه: «لا ينبغي أن يكون الدافع هنا هو المصلحة الشخصية، أو المكاسب التجارية، أو أي هدف آخر بخلاف إعلام الجمهور.»..

بعد ذلك انتقل إلى الحديث عن مسألة التوفيق بين واجب الإخبار وبين حماية المواطنين، فأحيانا يتم التنافس في نشر الخبر حتى قبل أن تتخذ المحكمة القرار، أو يتم التحقق من مصداقيته.

وتناول قضايا شائكة من قبيل: هل من حق الجمهور - مثلا - الاطلاع على صحة الرئيس المتدهورة مع العلم أن المسألة لها علاقة بالأمن القومي ؟ ووقف عند بعض سلبيات نشر التقارير المنقولة، من غير تمحيص بل وأحيانا من غير توثيق، مع ما يرافق ذلك من شائعات غير مقبولة.. وتساءل كيف يمكن للصحافي أن يوفق بين هذا وذاك أمام قوة المال، وأكد على مسؤوليته في إطلاع المستهلك على السلع والخدمات ذات الجودة..

أما مقال: «عندما كنا نقرأ الكتب بنهم»، فتناول فيه أندريه ثيفرين، وضعية القراءة للكتب في الولايات المتحدة، رغم منافسة الوسائل الحديثة، حيث أكد أنها لا تزال بخير، وقدم مقارنة بين الماضي والحاضر ليقف عند أزمة الكتاب الجيد، مؤكدا أن: «المجموعات المختارة من الأعمال الأدبية والفكرية الجادة، التي كانت متاحة على نطاق واسع في الماضي، أصبح من الصعب العثور عليها الآن.»..

ووقف طويلا أمام أزمة الكتاب الجيد، حيث أشار إلى أنه، «أصبح من الصعب نشر العمل الجاد، الذي يستغرق وقتا طويلا ليجد جمهورا.»، والأمر نفسه ينطبق على الأعمال الطموحة للمؤلفين الجدد..

أما دور النشر التي عمدت إلى نشر الكتب الجيدة والصعبة فإنها وجدت صعوبة في توفير نفقات الطبع والتخزين والنشر. ولم يتبق أمام الراغبين في الكتب الجيدة سوى اللجوء إلى الناشرين الذين لا يستهدفون الربح رغم ما يعانونه من عجز.. ليتساءل في حسرة: «كيف، إذا، سيناقش المجتمع الأمريكي قضايا المستقبل؟ وكيف سنعرف الأفكار الجديدة، والمناهج والاتجاهات المختلفة، والأفكار المعارضة؟ هذا هو السؤال.»..

وفي مقال: «الأفلام السينمائية: ترويج لرغبة الاستهلاك»، لإدوارد إن. لو تواك، يقارن المؤلف بين وضعية الستينيات والسبعينيات، حيث كان الجمهور يقف في وجه الإعلانات التي تعرض على شاشات السينما، بالوضعية الحالية، حيث، «يجلس المشاهدون في صمت كفاقدي الحس... وهم يتلقون إعلانا تلو الآخر بينما تؤجل مشاهد الفيلم إلى ما لا نهاية.».. ويصور الهجمة الشرسة التي تمارسها السينما على المراهقين، منتقدا دورها، حيث لم تولد: «السينما الأمريكية

في مختبر الفن الخالص النقي أو التكنولوجيا النقية، لكن ولدت في عالم حضري، مشبوه، وسافل، وانتهازي.».. ويكشف عن علاقتها بالنزعة الاستهلاكية، حيث تم إقحام الإعلان كوسيلة لاستغلال أسواق جديدة، مركزين على: «الاحتياجات والرغبات التي مازالت في اللاشعور ولم يعبر عنها أصحابها بعد لكنها في طور الظهور لتلتقط الطعم.»..

وكنتيجة للتركيز على كل ما هو مرئي وتكيفنا مع مشروع الاستهلاك، فقد «أصبح النظر والشراء متشابكين.»..

ويعرض انتقاد الماركسية للسينما على اعتبار أنها شرك إغراء المادية. وأجرى مقارنة بين سينما الثلاثينيات التي نشرت الأمل، وبين الحاضر حيث التلاعب بمخ الإنسان لدفعه إلى الانفاق قصد الحصول على المزيد من الأشياء، ونقله إلى واقع افتراضي بعيدا عن الواقع..

أما مقال» البيئة: عطاؤها واستهلاكها»، لديفيد دبليو. أور، فيتناول بالحديث تجربة أحد أصدقاء الباحث واسمه ستيوارت ميس مع الطبيعة واعتماده عليها في صنع أدواته بحيث لا تؤثر على البيئة..

وأشار إلى أن ظهور المجتمع الاستهلاكي لم يكن حتميا ولا عرضيا، «لكنه نتج عن التقاء أربع قوى؛ مجموعة من الأفكار تفيد أن الأرض هي ملكنا، وظهور المادية الحديثة، والمهارة التكنولوجية والسخاء غير العادي لأمريكا الشمالية، حيث تأسس لأول مرة نموذج الاستهلاك الموسع.». وأرجع السبب إلى عوامل عدة منها إغواء الدعاية والوقوع في شرك الائتمان، والأسعار التي لا تنبئ عن حقيقة التكاليف الكاملة لما نستهلكه، والجهل بالمضمون الخطير لكثير مما نستهلكه، وانحلال المجتمع، والاستخفاف بالمستقبل والفساد السياسي، وضمور الوسائل البديلة التي قد نزود بها أنفسنا. إضافة إلى تدخل التكنولوجيا كوسيط بين الإنسان والطبيعة بعد أن كان الاتصال مباشرا وعميقا. وتأسف لما لحق بالطبيعة من تدمير، حيث السائد الآن هو: الفساد الحضري، والفوضى، والقبح، هو القاعدة، والاستهلاك الجبري، الذي ربما يكون شكلا من أشكال الحزن... ليتهم الإنسان بالحماقة وبالسذاجة في انسياقه وراء شركات تآمرت لخلق بشر يمكن استغلاله: والذين يمكن أن يشعروا بفخر زائف في عبوديتهم لهذه السلع.»..

وتناول بالحديث الجدل الدائر عالميا حول الأنماط الحالية للاستهلاك وأثر ذلك على كل من الفقراء والأرض والأجيال القادمة، مشيرا إلى موقف المدافعين عن الاقتصاد الحر والسوق الحرة، في مقابل الداعين إلى كبح جماح الاستهلاك.. وانتقد الباحث فكرة هؤلاء في أن «من يكونون وما ملكوا شيء واحد»، وتطرق للوسائل التي يعمد إليها دعاة الترويج للاستهلاك مقدما أرقاما مهولة عن معدل استهلاك المواطن الأمريكي.

وحين طرح السؤال: «هل يضيف الاستهلاك الجبري إلى نوعية حياتنا؟ كان الجواب: «لا»..

إن المشكلة، في نظر الباحث، تكمن في أننا لا نرى القبح الحقيقي لاقتصاد الاستهلاك، لذلك نتهاون في فعل شيء حيال الأمر، متعللين بالتقدم.

وقد عبر الباحث عن حنينه للماضي الجميل حيث التناسق بين الإنسان وبيئته، مقترحا نماذج للانسجام مع محيطنا البيئي، تشمل تصاميم البناء التي تحافظ على البيئة من جهة وتزيد من ترابط الأشخاص فيما بينهم، من جهة أخرى، وتقلل من السرعة المتسببة في الاستهلاك..

ليختم مقالته بالقول: «من الممكن أن نعيش بشكل جيد دون استهلاك بهجة العالم، وبدون استهلاك ميراث أبنائنا.»..

وتناولت جاين سمايلي في مقالها: «الاستهلاك والعمل المنزلي»، ظروف استهلاك جهود المرأة بين العمل المنزلي والعمل خارج المنزل خلال فترات تاريخية طويلة، وتسرد نماذج حياتية لسيدات عشن المعاناة اليومية....

وفي مقال: «التوازن» يشير مارتن إي. مارتي، إلى كل إنسان يمارس عملية الاستهلاك، بأي شكل من الأشكال، ويحاول الوقوف في منتصف الطريق بين من يرون أن مشكلات الاستهلاك ليست كبيرة وبين من يرون ألا مشكلة أصلا في ذلك، وبين الذين يعتقدون أن هناك مشكلات كبيرة، لينتقل إلى سرد علاقة الشعب الأمريكي بالاستهلاك منذ نشأة الدولة..

وتناول الجدل الدائر حول الموضوع بين معتنقي الإنجيل الداعين إلى الزهد والتقشف ودعاة التنوير المدافعين عن التوسط ثم المدافعين عن التصنيع الداعين إلى الاستهلاك. ليقف عند مواقف كل فريق محللا ومناقشا، واقفا عند التناقض الظاهر في كثير من المواقف بين الجانب النظري وبين الواقع العملي، ليقف موقف الرافض للرأيين المتطرفين، مدافعا عن حماية البيئة والمستهلك معا..

وتحاول الباحثة ستيفاني ميلز في آخر مقال: «في أزمة الانقراض هذه»، تناول التحول الذي عرفته المنطقة التي تسكن فيها، إذ تم تحويل الغابات الشاسعة بعد بيعها إلى بقع إما بها مساكن ضيقة أو بقيت فارغة خالية من الشجر، واتهمت الزراعة بأنها بداية النزعة الاستهلاكية حيث تنتج فائض الإنتاج وبالتالي تسمح بالتخزين ليعمد الإنسان إلى الاستقرار وبناء الحضارة، وهو ما يتم على حساب العالم الحيوي..

وتؤكد بأن معرفة بعض التكاليف الحقيقية لسلعنا الاستهلاكية، ستؤدي «إلى إدراكنا البائس بتمسكنا بالعادات التي تهدد الحياة.»...

وتكشف عن مهارات البائعين، مؤكدة بأنهم يستهدفون الأنا أو العقل اللاواعي عند المشتري «بوضع السلع، غالبا بذكاء، في معادلات رمزية: الخمر والجنس، التبغ والرجولة، السيارات والحرية، مستحضرات التجميل والجاذبية... وللأسف، فإن الكعك المدهون لا يسد الجوع.». لتستخلص بأنه، «إذا استمر الجنس البشري في الازدهار، فعند نقطة ليست ببعيدة، ستسقط حتى أنماط الحياة الأكثر شحا.». وتنهي المقال بالقول: إن «الحياة الجيدة، هي حق بالميلاد. إنها تدور حول الكينونة والعمل، وليس حول الامتلاك.»..

قلق الهويات المركَّبة والقاتلة؟

مصطفى سليمان

هل لمفهوم الهوية «هوية» متجانسة ذات بُعد واحد؟ أم لها أبعاد مركّبة قد تتكامل، وقد تتعارض، وتتناقض، بل... وتتصارع؟. وبهذا ننتقل من «صراع الحضارات» عند صموئيل هنتنغتون، إلى صراع الهويات وتأزيم السلام العالمي بالحقد والكراهية والحروب عند المفكر الهندي «أماتيا سن»، واللبناني أمين معلوف في كتابه المثير: «الهويات القاتلة».

كل حضارة لها صبغة قومية معينة، ومع ذلك تتركّب من هويات متعددة؛ نقول الحضارة العربية، وأحياناً الحضارة العربية الإسلامية استناداً إلى مقوّمين من مقوِّمات هوية الأمم: القومية والدين. بالرغم من أن حضارتنا تضمنت تاريخياً، وتتضمن اليوم عدة هويات قومية ولغات متنوعة أسهمت في منجزاتها من عرب وفرس وهنود وسريان... إلى جانب مفكرين وفلاسفة وعلماء وشعراء من أديان أخرى كالمسيحية واليهودية. والعرب ليسوا كلهم مسلمين، والمسلمون ليسوا كلهم عرباً.

الحضارة العربية الإسلامية؛ حضارة عولمة إنسانية فريدة أسهمت فيها جميع الهويات والمكونات القومية وباللغة العربية.

واللغة المشتركة أو المسألة اللغوية في تحديد معالم الهوية مسألة فيها نظر. فاللغة وحدها لا تحدد نوع الهوية القومية للمتحدث بها. فمثلاً: هل كل الناطقين بالعربية على اختلاف المناطق الجغرافية بين القارات وتباين انتماءاتهم القومية والدينية هم عرب؟ وهل كل متحدث بالإنجليزية على مستوى الفرد والمجتمع في دولة ما، ولو كانت معتمَدة لغة رسمية، هو إنكليزي؟. أميركا أكبر مثال على نقض هذه الفكرة.

وهناك قوميات غير عربية في العالم العربي مازالت تحتفظ بلغاتها القديمة مثل الأكراد والشركس والأرمن والأمازيغ والآشوريين والسريان... وتحدثوا بالعربية بعد حركة الفتوحات الإسلامية التي حملت معها اللغة العربية حيث استقرت الفتوحات. وقد تعربت ألسنة تلك القوميات للاندماج في الأوضاع السياسية والثقافية والمهنية الراهنة وقتها. وهناك الكثيرون ممن اعتنقوا الإسلام وامتزجوا بالحضارة العربية الإسلامية ثقافة ولغةً وانتماء وأسهموا في ازدهارها بترجماتهم من الفارسية والهندية واليونانية. بل إن من غير العرب من أسهم في تأسيس النحو العربي (سيبويه وغيره)، وقدّم أجلّ الدراسات في فقه اللغة العربية وتفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والعلوم والفلسفة...

ومع ذلك قامت في العصر

العباسي حركات قومية انفصالية كالخُرّمية والخراسانية والبابكية والشعوبية ودعت إلى تأسيس كياناتها القومية المستقلة، وهذا ما حدث في ما يُعرَف بعصور الدول المتتابعة، حتى وصلنا إلى دول المماليك والأيوبيين إلخ... واليوم ها نحن نسمع المناداة بتكوين كيانات مستقلة للأكراد والسريان والآشوريين... فما أشبه الليلة بالبارحة!!

إن اللغات السامية، كالكنعانية والفينيقية والبابلية والآرامية والكلدانية والآشورية، والعربية، كلها ذات جذورمشتركة واحدة : ألفاظاً ونحواً وصرفاً وأساليب لغوية فجميعها تجليات لغوية لحضارات هذه المنطقة التي تنتمي إلى أرومة مشتركة، ما عدا الفرس الذين ينتمون إلى العرق الآري وأصبحت لغتهم تُكتَب بالحروف العربية مع ذخيرة هائلة من الألفاظ والأساليب العربية.

جميع هذه الشعوب، كما أسلفنا، أسهمت في تأسيس حضارتنا التي نسميها اصطلاحاً الحضارة العربية الإسلامية. فلا بد من تسمية اصطلاحية تطلق على أي حضارة، تماماً كما نقول الحضارة الأميركية اليوم فهي نتاج عالمي أسهم في تأسيسها معظم القوميات والأعراق العالمية والأديان المختلفة. ولدينا الحضارة الأوروبية المختلفة بلغاتها وقومياتها وأعراقها التي تصارعت عبر عصور طويلة بين بعضها بعضاً، وأسست صراع الحضارات والهويات بالغزو الصليبي والاستعماري، ثم بالحربين العالميتين.

الحضارة العربية الإسلامية حضارة عولمة إنسانية فريدة أسهمت فيها جميع الهويات والمكونات القومية وباللغة العربية فقط التي صار لها قداسة دينية كونها لغة القرآن. لكن المفكر الهندي(أماتيا سن)، كما عرض آراءه د. إبراهيم ياسين في مقالة « فن بناء الكراهية ووهم الهوية الفريدة (مجلة الهوية الغرسة 87) يرى أن تحديد الهوية في نطاق ضيق كاللغة والدين مثلاً تصغير للإنسان، وأن السلام في العالم المعاصر يكمن بالاعتراف بتعددية انتماءاتنا، وفي استخدام التفكير والمنطق. وهذا قولٌ موضوعي. و لكن نتساءل: ألا تقوم صراعات وحروب أهلية بين أطراف الهوية الواحدة في الوطن الواحد؟ (جنوب السودان الآن مثال واضح). فالخوف على السلام العالمي من صراع الهويات وتعدد الولاءات والانتماءات خوف ليس في محله. و(صراع الحضارات) عند هنتغنتون أبعد خطراً من مفهوم صراع الهويات؛ لأن هذه الحضارات فيها هويات متعددة ويُراد خلق صراع هويات «داخلية» فيها على أسس دينية وطائفية ومذهبية وعرقية أو قومية... كما نشاهد اليوم.

وهذا الموقف يتطابق مع آراء أمين معلوف في كثير من طروحاته في كتابه المثير: الهويات القاتلة. ويظهر التطابق في كثير من النقاط وبخاصة من ناحية اللغة والدين.

في فرنسا خمسة ملايين مسلم مغاربي بشكل خاص لهم لغتهم وانتماؤهم الديني، فهل يسمح لهم بتأسيس كيان قومي مستقل؟ كذلك في أميركا عشرون مليون مسلم من قوميات ولغات وأعراق مختلفة فهل يسمح لهم أيضاً بتأسيس وطن قومي أو ديني، كما يدعو الصهاينة إلى الاعتراف بـ«يهودية» دولتهم، بعد أن حصلوا على وعد بلفور بإقامة «وطن قومي» لهم في فلسطين، فأحيَوا اللغة العبرية وجعلوها لغة الدولة والحياة، وذلك وسط سكان البلاد الأصليين من عرب كنعانيين مسلمين ومسيحيين ؟

لماذا تفخر أميركا مثلاً بالهوية القومية الأميركية الواحدة، مع أن شعبها من مختلف بقاع الأرض قومياً ولغوياً؟ ومع ذلك تدعم قيام كيان سياسي وقومي مستقل للأكراد في سورية !. والأقباط في مصر يحظون برعاية غربية رسمية ودينية عالمية.

يجب أن تكون لنا الشجاعة للاعتراف بالعوامل الداخلية الذاتية في مجتمعنا العربي والإسلامي والتي حرّضت دعاة النزعات الدينية والقومية المتعصبة والمتطرفة عندنا، وفي الغرب على معاداتنا. تم ذلك بتأثير حركات الإسلام السياسي المتعصب والمتطرف والإرهابي الذي لم يسلم منه العرب والمسلمون، قبل الغربيين.

هذه الحركات المتطرفة أجّجت لدينا الصراع الداخلي بين هويّاتنا المتنوعة قومياً ولغوياً ودينياً والمتعايشة بسلام وإخاء عبر قرون، وطمستْ الروح الوطنية والدينية الجوهرية التي سادت زمن التصدي للغزوات الخارجية من صليبيين ومغول، ولموجات الاستعمار الغربي والصهيوني.

الدراسات اللغوية المقارنة للغات السامية والأساطير والعقائد والعادات والتقاليد والفنون تثبت وحدة هوية الجذور المشتركة.

أمين معلوف يتهرب من تحديد مفهوم الهوية، فهذه المسألة برأيه مسألة فلسفية منذ قول سقراط: اعرف نفسك. إن مقولة سقراط حقاً مقولة فلسفية تتعلق بمعرفة الذات الفردية لا الجمعية معرفةً نفسيةً كينونية جوهرية، وليست معرفة هوية قومية أو دينية أو لغوية... وهذا ما لم يكن يدور حتماً في ذهن سقراط، لكن المعلوف يريد أن يتهرب من تحديد مفهوم الهوية؛ لأنه كما يحدد هويته الذاتية: مسيحي. لبناني. عربي. فرنسي. أي هويته هوية مركّبة. وهو الواقع.

يقول أمين معلوف: « لقد علمتني حياة الكتابة أن أرتاب في الكلمات، فأكثرها شفافية غالباً ما يكون أكثرها خيانة، وأكثر هذه الكلمات المضللة هي كلمة «هوية تحديداً».!

هو يراها قاتلة وطبعاً نرى أنها ستكون مقتولة أيضاً!!. وهذا مطابق لرأي المفكر الهندي أماتيا سن. أي علينا تذويب هويتنا من أجل السلام العالمي في حين يتشبث غيرنا بهويته (القاتلة) وأخطرها الهوية الصهيونية – اليهودية وبعض الهويات العنصرية الأميركية والأوروبية مثل حركة (بيغيدا) و(النازيون الجُدد) بألمانيا. وقد رأى المؤرخ البريطاني أن أسوأ ما أنتجته الحضارة الأوروبية: النازية والفاشية والصهيونية.

هناك اليوم في محيطنا العربي حركات فكرية أو منظمات مسلحة تقاتل الدولة الوطنية لتأسيس كيانات انفصالية متمايزة

عن المحيط الحضاري الذي نشأت فيه عبر قرون. وقد شاهدتُ منذ مدة لقاء متلفزاً مع ثلاث فتيات سريانيات على خط النار السوري بلباس عسكري ورشاش كلاشنكوف على الكتف الناعم. كان الحوار معهن عن الحزب القومي السوري الاجتماعي الذي ينتمين إليه. والسريان موجودون في العراق وسورية وهم من أقدم شعوب الشرق ولهم فضل عظيم في حركة الترجمة في العصر العباسي من اليونانية إلى العربية. وقد درسنا في الجامعة اللغةَ السريانية سنتين، ووقفت على التشابه بل التطابق في كثير من نواحي الألفاظ والأساليب التعبيرية والتراكيب النحوية والصرفية المشتركة بينها وبين العربية. وأسأل الآن: لمَ حملت هؤلاء السريانيات والكرديات السلاح؟ ولماذا بُعثت تلك القوميات اليوم؟ ولمَ تعسكرت، ومَن عسكرها ؟

علينا أن نربط هذا بالربيع العربي الذي قام على أمل أن يكون مثل ربيع براغ ضد السوفييت، فصار خريفاً دامياً خارج تصنيف الفصول الأربعة. لقد تبدل المناخ النفسي والفكري والثقافي العام وتخلخل النسيج الاجتماعي واللغوي والقومي والديني والمذهبي والطائفي، وحدث تشويش كبير في مفهوم الهوية والانتماء والولاء. صار العراقي والسوري الذي حقنته الدولة العربية عبر قرون بروح القومية العربية والتراث العربي والتاريخ الحضاري العربي (فقط وفقط) فلا يتحدث عبر وسائل الإعلام، وطبعاً وحتماً مع أبناء قومه وهذا طبيعي، إلا باللغة الكردية والآشورية والسريانية، وهذا برأيي حق مشروع وغنى ثقافي كان يجب تنميته ورعايته، لا محاربته.

ونشأت مواقع إلكترونية تمجد حضارات الشرق القديم في منطقتنا، وهذا مكسب حضاري أقف معه. لكن أتباع هذه القوميات رفضوا حضارة العرب بنفور واستهزاء وتحقير، وهذا حمق وتعصب عنصري أو عرقي وجهل وتجاهل. نذكر هنا مقولتهم الشهيرة المقززة عن تسمية الحضارة العربية بحضارة بول البعير!!

هم يحلمون أحلاماً تاريخية رومانسية بإعادة عجلة التاريخ إلى الوراء ونفخ النار في رماد ميت لا جمر فيه، تماماً مثل عصابة داعش وأخواتها التي حلمت ببعث الخلافة الإسلامية في عصر لا يحتمل نظام الخلافة ولا الإمبراطورية على أسس دينية أو عنصرية أو إمبريالية أو مذهبية تؤسّس على الدم والجماجم: ذبحاً وحرقاً وإغراقاً على قيد الحياة.

علينا الاهتمام بكل تجليات وتراث هذه الشعوب ذات الجذور الواحدة. هناك تقديس رومانسي مَرَضي عنصري لكل ما هو قديم من حضارات هذا الشرق. لكن الفرق كبير بين التقديس والتقدير والتحقير.

في أميركا خليط من شعوب الأرض كافة وتحمل الدولة اسم الولايات المتحدة الأميركية دلالة على الهوية القومية الأميركية رغم تعدد القوميات واللغات فيها... هذا يقودنا إلى من يعترض على تسمية «الوطن العربي» أو «العالم العربي» بحجة أن هناك قوميات كثيرة غير عربية، ولغات أيضاً غير عربية. وجاء الوقت الذي استغل

التسامح الحضاري والديني والقومي واللغوي هو الخلاص.

فيه بعض من هؤلاء، بتنسيق داخلي وخارجي، هذه الفسيفساء القومية واللغوية للسعي لتكوين دويلات مستقلة هنا وهناك. ولا نغفل غباء بعض السلطات العربية بعدم استيعاب المواطنين من أقلياتها ومنحهم خصوصيتهم القومية واللغوية تحت ظل الدولة، الواحدة أسوة بما يجري في كثير من دول العالم: أوروبا، أميركا، سويسرا، بلجيكا...

الرئيس الأميركي آيزنهاور، وهو ألماني الأصل، حارب النازيين الألمان في أوروبا تحت قيادته. وأوباما تزعّم أميركا وهو من أصول إفريقية ومسلمة. وساركوزي ترأس فرنسا وهو من أصل بولندي يهودي. كذلك الأمر مع جون كندي الآيرلندي... وكارلوس منعم السوري الذي ترأس الأرجنتين عدة سنوات. لقد حملوا الهوية الأميركية والفرنسية دون عقدة الهوية الأصلية المتفردة. وفي التاريخ القديم هناك سوريون صاروا أباطرة على عرش الإمبراطورية الرومانية مثل Philip The Arab: فيليب العربي، من بصرى، شهبا، جنوب سورية وسمّيت مدينته باسمه فيليبوبوليس في العهد الروماني.

ولعل قارئ رواية عودة الروح لتوفيق الحكيم يتذكر التصدير الذي صدّر به روايته والمقتبس من نشيد الموتى الفرعوني: «انهض أوزيريس إني ولدك حوريس. جئت لأردّ لك الحياة. ويجيب أوزيريس: «إني حي. إني حي».

شيء رائع أن نبعث الحياة في الحضارات القديمة في مصر وبلاد الرافدين وبلاد الشام والجزيرة العربية التي بدأت تنقب عبر البعثات الأثرية العالمية والمحلية عن الجذور الحضارية لهذه المنطقة التي لا تنفصل مطلقاً، عن الحضارة – الأم،. فالدراسات اللغوية المقارنة للغات السامية، والأساطير، والعقائد الدينية، والعادات والتقاليد والفنون... تثبت وحدة هوية الجذور المشتركة بينها جميعاً.

لا خوف من انبعاث أو بعث أيّ مظهر من مظاهر حضاراتنا التي نشأت عبر التاريخ في منطقتنا، فهو إغناء حضاري نعتز به، والعالم المتحضر كله يعتز به ويقيم له الندوات والمتاحف. لكن الخوف من تفتيت هذه المنطقة، بهوياتها المركّبة، إلى كيانات قومية وعرقية ودينية وطائفية ومذهبية مستقلة، ثم متعادية ومتحاربة. وهو ما لا ترضاه أي دولة اليوم مهما تعددت ألوانها وأطيافها ولدينا مثال: جنوب السودان كما ذكرت سابقاً، وكردستان العراق، ومحاولات أكراد سورية وتركيا وإيران، والباسكيين في إسبانيا، تأسيس كيانات قومية منفصلة مستقلة في عصر يسعى فيه العالم إلى التكتُّل والعولمة الإنسانية لمواجهة تحديات العصر والعصور التالية، فلا حياة للكيانات الشظايا الصغرى في عالم الكبار الأقوياء.

إن الخلاص من قلق ومأزق الهويات المركّبة يكمن – في رأيي– في التسامح الحضاري الديني والقومي واللغوي والثقافي...، واعتماد روح العولمة الإنسانية الحقة، غير المتوحشة.

من أسوار الذات إلى فضاءات الكونية:

تمثيلات الهوية في مؤلفات المفكر الفلسطـيني الأمريـكي إدوارد سعيد

د. سعاد العنزي

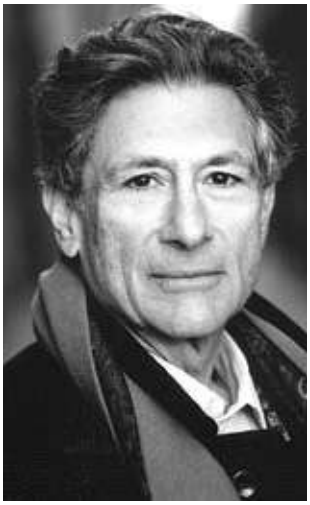

تعد تجربة المفكر والناقد الفلسطيني الأمريكي إدوارد سعيد واحدة من التجارب الهامة على صعيد موضوعات الهوية من المنظور الفردي، أو الاجتماعي، أو السياسي، حيث يجد القارئ في كتبه ومقالاته المتعددة نظرات ثاقبة ورؤى ما بعد حداثية ناضجة تعالج موضوع الهوية وإشكالياتها من مثل اصطدام الحضارات، وصراع الثقافات من خلال طرحه مفاهيم التعايش والتسامح وقبول الآخر مع عدم التخاذل عن الدفاع عن الهوية الوطنية أو الإنسانية إذا تعرضت إلى أي تهديد. في هذه المقالة، سأتطرق إلى تصوير سعيد لمفهوم الهوية الفردية في مذكراته «خارج المكان» (Out of Place)، وفي مجموعة من مقالاته الأكاديمية ك «تأملات المنفى» (Reflections of Exile)، وهما المؤلفان اللذان عالج فيهما سعيد هويته الخاصة وما تعانيه من قلق وتشظي بين ثقافات متعددة. بعد ذلك سأعرض لفكرة الهوية خارج الوطن من خلال مناقشة فكرة الهوية الكونية والهجنة كما عالجها سعيد في أعماله المتعددة.

خارج المكان: مذكرات (1999)

يسجل كتاب «خارج المكان» لسعيد حضوره الخاص في الذاكرة الثقافية العربية بوصفه واحدا من أكثر المساهمات المتعة فيما يخص دراسات السير الذاتية لأنها تعكس بأمانة وصدق شديدين العالم الداخلي للناقد العظيم، إدوارد سعيد. يكتب سعيد في هذه المذكرات تفاصيل مهمة حول حياته الشخصية والأكاديمية

ويكشف التفاصيل التي في بعض الحالات كانت متخفية في ذاكرته البعيدة حتى الوقت الذي قام فيه بكتابة مذكراته.

قبل مناقشة المواضيع المهمة في مذكراته، من المهم تأمل سبب اختياره لكلمة مذكرات (Memoir) بدلا من كلمة «سيرة ذاتية» (Autobiography) ليحدد الجنس الكتابي لعمله. يرجح ماك كارثي السبب المحتمل الذي قد يكون قاد سعيد إلى التفكير فيه وهو الاختلافات بين المصطلحين: «من المقترح أن مصطلح السيرة الذاتية يستدعي موضوعية معبرة، ودقة، بينما المذكرات تكون أكثر تواضعا، انطباعية بوعي-ذاتي، من دون نزعة قاسية أو تسجيل وضعية تاريخية». ربما، هذا ما دفع سعيد لاختيار هذه التسمية ليشير لقصته الشخصية، مزودة بالرغبة في تحرير ذاته من التعبيرات الرسمية للذات، ويختار أن يركز على هذه الأحداث والأفراد الذين كانوا مهمين بالنسبة له شخصيا، أكثر من أنهم كانوا بالضرورة مصدر اهتمام للدلالة التاريخية الأوسع لحياة الرجل. هذا لم يكن راجعا للتمرين الأكاديمي في اكتشاف الذات لكنه يعود أكثر لرغبته في التأمل الذاتي للهوية. يؤكد ماك كارثي، بشكل ساخر، أن هذا الفقد للصرامة الأكاديمية هو الذي يعطي عمل سعيد هذا تحديدا أصالته باعتباره تذكرا شخصيا غير رسمي.

فيما يتعلق بالذكريات نفسها، يركزسعيد أساسا على طفولته المبكرة، يناقش فيها توجهاته الشخصية ضد نظام أبيه الصارم التي اعتقد أنها أثرت على شخصيته بطريقة سلبية. على نحو مناقض لمقاربة أبيه لتربيته، كانت تبدو والدة سعيد عاملا مساعدا له بقوة، وعند فهم كل من مقاربتي والديه يقدم نظرة مفيدة لبعض العوامل المساهمة لتشكيل هويته. يلاحظ سعيد كيف ساعد والداه سعيداً وأخواته في تشكيل شخصياتهم عبر ممارسة قوتهم في ضبط سلوكيات أطفالهم، وإقناع كل منهم حول ماكان خيرا وشرا لهم بالاعتماد على رؤيتهما

المحددة للحياة. في مواضع متعددة من مذكراته، يراجع سعيد طريقة أمه في تربيته، يشرح بالتفصيل طرقها الذكية لجعله يتصرف كما تريد منه.

يسلط الضوء سعيد أيضا على العلاقة بين والديه، في عملية اكتشاف سلبية والدته تجاه شخصية زوجها رغم شخصيتها القوية. هذا يعكس كلاً من وضعية المرأة في العائلة الشرقية كتابعات للرجال، وفي وقت مشابه، يمكن القول إنه ذكر هذه النماذج ليرسم الوضعية الدونية للنساء في الثقافة العربية.

بإخبار حكايته الشخصية، يتذكر سعيد كلاً من الآثار السلبية والإيجابية على حياته، مثل تلك التي شابت تاريخ عائلته وأمته. هو لا يصنع انقساما واضحا بين الأحداث التي حدثت في الفضاء الشخصي وتلك التي أخذت موضعا في تاريخ وطنه، وفي مناسبات متعددة في الكتاب يعكس التغيرات التي تعود للقضية الفلسطينية بالوقوف وتحليل الوضعيات المؤيدة والمعارضة لما يخص فلسطين. كل هذا يعكس علاقته الوثيقة بوطنه ويعرض للقارئ جهوده العظيمة للدفاع عن كل من الأوضاع العربية والفلسطينية. تتجول أفكاره على ما يبدو بشكل حر بين الناس والأماكن في حياته الشخصية، قافزا من مرحلة لأخرى كما يحاول أن يحضر للذاكرة تلك الذكريات التي قد نثرت عبر الزمان والفضاء، ويعيد القبض على

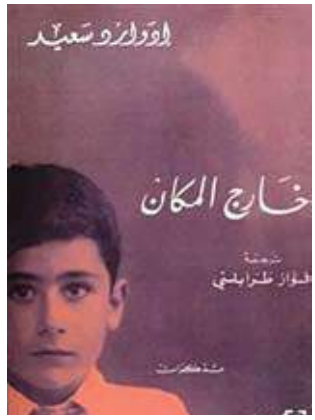

بعض منها فيما يعجز عن تلك التي قد ذهبت ضالة شاردة، ويفشل في استدعائها.

لقد وصف الأماكن التي يتذكرها كمواقع جغرافية حقيقية، لهذا إنه من الممكن أن ندرك القسمات المميزة للمدن: القاهرة، ونيويورك، ولكنه يرتبط بهذه الأماكن عاطفيا، ومن الممكن أن يحدد المكان الذي أحبه ولم يحبه من حيث الأثر الذي بقي في ذاكرته. هو غالبا يربط الأماكن السعيدة مع الأحداث الحزينة التي حدثت هناك، يعطي القراء نظرة إلى الطريقة التي يتعامل فيها سيكولوجيا مع المكان والزمان وتأثيرهما على شخصيته.

باختصار، مذكرات سعيد هي أكثر من مذكرات شخصية لمفكر، بدلا من هذا، إنها تبدو انعكاسا واضحا لأوقات عاشها، وأماكن عاشها، وذكرياته لأقارب وأصدقاء أثروا في تكوينه النفسي والإنساني ولا سيما ذكرياته لدور عمته نبيهة النضالي تجاه القضية الفلسطينية وما له من تأثير كبير عليه في تشكيل وعيه المبكر نحو القضية.

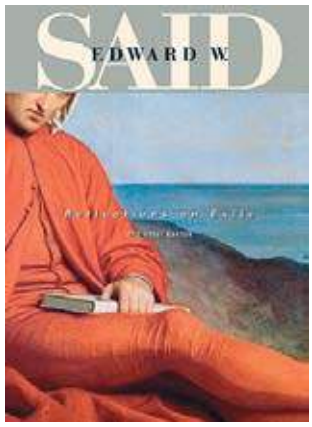

تأملات المنفى (2000)

يعد كتاب «تأملات المنفى» المؤلف من من ثلاث وعشرين مقالة كتبها سعيد حول موضوعات متنوعة، وأغلبيتها تعود إلى قضايا تحيط بالسياسة العربية، والأدب والمواقع الجغرافية مثل تلك القطعة البديعة التي كتبها حول القاهرة. على كل حال، تعنون مقالتان ضمن هذه المجموعة بشكل خاص فكرة الهوية. الأولى عنوانها «تأملات المنفى» (Reflections of Exile) التي تحمل عنوان المجموعة نفسها، وتأخذ شكل المقالة الأكاديمية حول مفهوم الهوية في الأدب كما ظهر بكتابات كتاب منفيين. على النقيض، المقالة الأخرى هي تأمل شخصي لهوية سعيد الذاتية. تشرح مقالة «تأملات حول المنفى» للقراء تحول سعيد من الحديث حول المشكلة الشخصية إلى مشكلة عامة تناقش تجربة المهاجرين في معنى أوسع. هذه المقالة تعالج مفهوم «المنفى»، بدءا من تعريف كلمة منفى، وانتهاء بعرض سماته. بالإضافة إلى هذا، هذه المقالة تحاول أن تصنع امتيازات ذات معنى بين المنفيين والمهاجرين واللاجئين والمشردين. كما هو نموذجي لكتابة سعيد، هو يحيل إلى المنظرين والكتاب المنفيين الآخرين من مثل أدورنو، ومحمود درويش. بالإضافة إلى هذا، سعيد يقدم نظرة عميقة لمشاعر المنفي من مثل قوله:

والمنفيون ينظرون إلى غير المنفيين نظرة استياء وسخط. فهم ينتمون إلى محيطهم، كما ترى، أما المنفي فغريب على الدوام. فما الذي يعنيه أن تولد في مكان، وأن تمكث وتعيش فيه، وأن تعرف أنك منه، إلى ما يقارب الأبد؟.

في هذه المقالة، يعبر سعيد بتكرار عن فكرة كونه يعيش خارج المكان وعنوان سيرته الذاتية، كما أسلفنا، يظهر ليشير إلى أنه يفكر بنفسه كفرد كان باستمرار، كما عَنْوَن سيرته الذاتية «خارج المكان»، مصنفا نفسه على أنه خارجي. في الواقع، مثلما تلاحظ أليسا جونز نيلسون: لقد كانت وضعية سعيد الداخلية والخارجية مادة للتغيير وكان هو قادرًا لأن «يتحرك بشكل معاد خلال الحد الذي يفصل الداخلي من الخارجي» ولا يستقر إلى أحد هذه الفضاءات التي تبدو منعزلة بشكل مستقل». بأوقات محددة في حياته، كان أمريكيا داخليا أكاديميا وسياسيا. كما اتضح سابقا،على الرغم من أنه كان فلسطينيا بالمولد، ولد في فلسطين، قضى

أغلب سنين تكوينه في مصر. بعمر السادسة عشرة، سافر للولايات المتحدة الأمريكية ليكمل دراسته. بعد حصوله على الدكتوراة عام 1963م، أخذ سعيد مهنة التدريس بجامعة كولومبيا، وكان هذا متزامنا مع نكسة حرب الأيام الستة في 1967م المتبوعة بالنكسة التي بدأ سعيد بعدها بأن يكون واعيا سياسيا، وهذا الوعي بدأ يؤثر في حياته الأكاديمية وعمله. كداعم لمنظمة التحرير الفلسطينية، كان سعيد يعتبر سياسيا خارجيا بوساطة العديد من الأمريكيين. في عام 1980م، بعد ذلك، أصبح سعيد داخلياً مهماً ونشطاً في المركز الفلسطيني الوطني.

لاحقا، كان نقده لمنظمة التحرير الفلسطينية، والانكسار الفعلي لدور هذه المنظمة بعد توقيع اتفاقية أوسلو في عام 1993 التي عنت أنه أصبح ، بطرق متعددة، خارجياً في السياسية الفلسطينية الخارجية. الموقف الذي استدعى غضب أبناء وطنه بسبب دفعه فكرة الحدود الفاصلة بين أن تكون داخليا وخارجيا وتنتمي للموقف الأخلاقي والإنساني الأصيل من دون أن تكون مقيدا بانتماءات متعددة. بأوقات متعددة قد صنف نفسه كأكاديمي خارجي واعتبر نفسه كذلك، لكن هو لا يمكن أن ينظر لنفسه نظرة ثابتة حصريا في هذه المجموعة. المقالة الثانية المهمة في «تأملات حول المنفى» (Reflections of Exile)، معنونة ب«بين عالمين» (Between Two Worlds)، كتبها سعيد في مراحل لاحقة من حياته بعد اكتشاف أنه مصاب بمرض قاتل هو سرطان الدم الليمفاوي، وقد عاد إلى الشخصية الروائية التي كانت موضوع بحثه الدكتوراة، «جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية»، مقارنا منفاه الخاص مع ذلك الخاص بالروائي. هذا الاكتشاف المتأخر لنقاط التشابه بين تجربتي المنفيين الإثنين هي الثيمة المهمة لموضوع مقالة سعيد التي تحمل دلالة خاصة في فهم سعيد المتأخر لهويته. بينما كان كونراد مهاجرا بولنديا، كان سعيد فلسطينيا أمريكيا الذي يملك حق المواطنة الأمريكية بسبب هجرة والده. في هذه المقالة، يعرض سعيد للقارئ أولا: الروابط بينه وبين كونراد، وبعدها يقارن ويخالف علاقتهما لبعضهما البعض. كنتيجة لموقف سعيد المعقد كونه فلسطينيا وأمريكيا، شعر بمرارة هذا الإحساس تجاه منفاه الخاص الذي كان أعمق من منفى كونراد.

الهوية الذاتية والوطنية خارج الوطن:

مثلما قد لاحظ كل من أشكروفت، جريفيثس، وتيفين، في كتاب «الإمبراطورية ترد بالكتابة» (Empire Writes Back) أن القسمة المهيمنة في أدب «ما بعد الاستعمار» (Post-Colonial Literature) هي إشكالية المكان والإزاحة (Displacement). يهتم منظرو «ما بعد الاستعمار» بقضايا الهوية ويرون أن معنى الهوية الذاتية يتشكل في ظروف الحروب نتيجة مباشرة للإزاحة من وطن المرء. تبعا لد. إ. س. ماكسويل، نجد مفهوم الهوية يتأثر على نحو حاسم بالاقتلاع من الجذور الذي ربما يكون نتيجة للهجرة، الاستعباد، أو الإزالة «التطوعية» لأهداف مؤسسات عسكرية وأخرى. لقد استشعر سعيد نفس هذا النوع من الاقتلاع سواء هذا بسبب «عمليات الاستيطان، التدخل القضائي، أو خليط من الاثنين». على كل حال، يفكر إندرو جير أنه من الضروري أن نميز بين فكرة المنفى، الذي يكون لا إراديا، وفكرة الغربة، كما يقترح أنها فعلا أو حالة إرادية.

يعرض سعيد المنفى بطرق مختلفة. بوصفه منظرا أدبيا وأكاديميا، يقيم سعيد فكرة المنفى بشكل إيجابي.

رغم أن سعيداً لم يجرب بشكل شخصي الإزاحة المأساوية الإجبارية للفلسطينيين من فلسطين مثلما جربها فلسطينيون آخرون مثل محمود درويش، ومع ذلك بقي سعيد متأثرا بعمق بفكرة المنفى نتيجة لأثر ذلك على شعبه جسديا وسيكولوجيا وأيضا قيم ذكرياتهم له ومعاناتهم الشخصية منه في كتاباتهم الأدبية. يلاحظ باربور أنه في مذكراته «خارج المكان»، أن سعيداً يكتب عن حنينه المستمر إلى الانتماء إلى وطن محدد، وللمفارقة يتمنى بنفس الوقت العبور إلى أماكن أخرى، على المستوى الجغرافي والمجازي. يناقش أشكروفت أن سعيداً «يصنف باستمرار نفسه كشخص مقتلع، منفي من وطنه».

يقر سعيد أنه من الصعب أن نكون واعين بشكل كاف لهوية المرء في المنفى لأنه يحيل لشيء غير محكي، يربط بين من نحن، ومن أين أتينا، وماهي ما هيتنا. في هذه الأسئلة، يشير سعيد لمشكلة بناء فهم فعلي للهوية في المنفى، خصوصا بالنسبة لأولئك الذين فقدوا أرضهم. يحيل سعيد إلى الهوية الجمعية للفلسطينيين الذين يعيشون في المنفى في ظروف مختلفة. في حالة أسوأ السيناريوهات، أصبح البعض لاجئين دائمين، هذا الموقف عرض بسخرية في بعض أسطر قصيدة لدرويش التي يعنونها ب «أغنية ساذجة للصليب الأحمر»:

فأجبني يا أبي، أنت أبي
أم تراني صرت ابنا للصليب الأحمر؟!

وفي أفضل السيناريوهات، يصبح الفلسطينيون مهاجرين أو نصف مواطنين لبلدانهم المضيفة، التي غالبا ما يشتركون معهم بروابط ثقافية وإثنية. لهذا السبب، يصف سعيد الفلسطينيين بوصفهم «شعب الرسائل، والرموز، والتلميحات»، ولأن أرضهم محتلة، يمثلون شيئا من اللغز المحرج للمجتمع العالمي. يشابه وصف سعيد وصف حنا أرندنت للاجئين اليهود الذين صدموا بتجربة وجدوا من خلالها أنه

من السهل أن يحاولوا تجاهل هويتهم الحقيقية ليكونوا شيئا آخر: «مهما نفعل، مهما نتظاهر لنكون، نحن نكشف لا شيء سوى رغبتنا المجنونة في التغير، لا أن نكون يهودا».

يعد مفهوم «الهجنة» (Hybridity) واحدا من المفاهيم الرئيسة لمنظري «ما بعد الاستعمار» وكان عاملا رئيسيا في تشكيل هذه المقاربة. قد أصل كل من سعيد وهومي بابا لهذا المفهوم في أعمالهما المختلفة مثل «الثقافة والإمبريالية» (Culture and Imperialism) لسعيد، وعمل هومي بابا، ولكنه يعزى بشكل عام إلى بابا وكتابه «موقع الثقافة» (Location of Culture). بوصفهما مثقفين مهاجرين، كلا الرجلين وجدا نفسيهما يعيشان في ثقافتين، مع انتماءين، ولغتين، ومنازل متعددة. في كتابه، «صور المثقف»، يصرح سعيد أنه يعتبر المنفى جوهر وجود المثقف، ولهذا الرؤية الواضحة تظهر كخبرة إيجابية في حياة المفكر. تبعا لسعيد، المنفى هو نقطة لبحث مستمر عن الهوية من دون ثبات.

على كل حال، يعرف هومي بابا في كتابه «موقع الثقافة» مفهوم «الهجنة» بمصطلحات مختلفة قليلا، إذ يقوض المفهوم الوطني الرومانسي الموروث للشعب (أي شعب) بوصفه نقيا وأصيلا، الفكرة التي صورتها ونقلتها الأمبريالية للأمم الأخرى. مثل بقية منظري «ما بعد الاستعمار»، رفض بابا هذه الفكرة الثابتة والضيقة للانتماء إلى أمة محددة، ويقدم بدلا من هذا رؤية بديلة ترتكز على فكرة «الهويات الهجينة». هذه الانتماءات المختلطة للمهاجرين وبقية المقيمين انطلقت معا، لتؤلف مفهوما فريدا لنوع جديد من الهوية بني على فكرة «الفضاء الثالث». تبعا لبابا، «الفضاء الثالث» هو موقع مزدوج حيث المعاني الثقافية ليس لديها «وحدة أو ثبات أصلي».

عند تطبيق هذا المفهوم على الهوية الذاتية عند سعيد، من الواضح أن هويته قد تأسست أساسا على قسمات الهجنة. حمل سعيد هويات هجينة نتيجة لحقيقة أنه عاش في المنفى لعقود من حياته. توجد هويته فقط وفق فهمه للفضاء الثالث، في البينية بين الثقافات، والانتماءات، والمدن، واللغات. لم يعتبر الرجل نفسه ليكون فلسطينيا بشكل نقي. امتلك سعيد هوية موصولة فلسطيني – أمريكي.

من ناحية انتمائه إلى الوطن، ينتمي سعيد بشكل عميق إلى فلسطين، ولكن هذا لم يمنع سعيد من أن يشعر بنفسه باعتباره مواطنا أمريكيا. لاحظ سعيد أنه لم يضع نفسه بشكل نقي في مكان واحد. بقضايا تتعلق بفلسطين، هو كان مؤيدا للقضايا الفلسطينية، ولكن في قضايا سياسية أخرى، هو من الممكن أن يدافع عن أمريكا مثل أي أمريكي بتعاطف كبير يفعل ذلك. يضع سعيد نفسه بموقع بيني بين مكانين، وبالنسبة له، من الصعب أن يقبض على فكرة واحدة لانتماء واحد. في قصيدته، «قراءة طباقية لإدوارد سعيد»، يعرض درويش لقضية ازدواجية سعيد وبينيته الأمريكية الفلسطينية، بين اسمين ولغتين. هذه القسمة المميزة لصوت سعيد في هذه القصيدة، هي خير تمثيل لهويته المتعددة. هويته غير المستقرة وغير الثابتة هي مثال لرفضه أن يكون مهمشا يعيش خارج أسوار الثقافة التي ينتمي إليها أو أن يعيش حياته في نموذج واحد ثابت للهوية.

مما سبق، يتضح أن تناول الناقد الفلسطيني الأمريكي إدوارد سعيد للهوية الذاتية والوطنية والكونية كان تناولا خصبا تقاطع فيه الجانب الإنساني مع الخبرة الأكاديمية الطويلة في مناهضة الثبات والرجعية والقوى الإمبريالية، وتثبت أن المفكر الحر قادر على صنع هويته الأصيلة المتفردة باستمرار بمثل قدرته على الخروج من القوالب المسبقة الموضوعة للهوية الإنسانية.

هذا المقال يمثل متفرقات مترجمة من أطروحة الدكتوراة: «تشكيلات هوية ما بعد الاستعمار في أعمال إدوارد سعيد ومحمود درويش: دراسة مضمونية وأسلوبية»، جامعة مانشستر، 2016م.

4. المراجع:

- إدوارد سعيد، «تأملات حول المنفى»، تر: ثائر ديب، دار الآداب: القاهرة، الطبعة الثانية: 2007م.
- Modern the in Politics and Identity Jewish Pariah: as Jew The in Refugees", "We H Arendt,63. p. 66,-55 pp. 1978, Press, Grove York: New Age,
- McCarthy, C., The Cambridge Introduction to Edward Said, Cambridge University
- Press, Cambridge: 2010.
- Said, Edward, Out of Place: A Memoir, London: Granta, 1999.
- Said, Edward, Reflections on Exile and Other Literary and Cultural Essays, E. Book, London: Granta, 2000.
- Akhir al-layl (The End of Night), 1967, Available online at: Accessed on 04/06/2014. http://www.darwishfoundation.org/atemplate.php?id=920
- Ashcroft, A. Edward Said: the Paradox of Identity, New York: Routledge, 1999.
- Ashcroft, B., Griffiths, G., and Tiffin, H., The Empire Writes Back: Theory and
- edn, London: Routledge, 1989. st1Practice in Post Colonial Literature,
- edn, London; New York: Routledge, st1 Edward Said,Ashcroft, B. and Ahluwalia, P.
- 1999.
- Bhabha, H., The Location of Culture, London; New York: Routledge, 1994.

مُـراهقو الحَـداثة !!

د. محمد مصطفى الكَنْـز

من عجيبات هذا الزمن أن يخرج علينا - تحت عباءة الحداثة والتجديد والتنوير والإبداع - مراهقون في لباس أهل الفكْر، مَعارفُهم مزَقٌ من أمشاج الأفكار المتناقضة، وأخلاطٌ من الثقافات المنحرفة، وقفوا أمام علومنا وتاريخنا وقوفَ العاجز الأشلّ، وحين لم يصبروا على المضيّ في ميادينها، اختصروا الطريق فهاجموها، والإنسان عدوُ ما يجهل، تسللوا إلى الأماكن المحظورة ليعبثوا بها، وما هذا إلا فِعْلُ الصِّبْية والمراهقين !!

وإني - والله - لأشدُّ عجبًا ممن أقنع نفسه أن بناء المجد لا يكون إلا على أنقاض ثقافتنا، ومصادمة ثوابتنا، فحَطَبَ في وادي الضلالة على غير بصيرة، وآمن أنّ الإبداع لا يمُرُّ إلا بطريق رَمْي المُقدّس، فسنّ له قذائفَه الحمقاء، ورأى أنّ تَسوُّر حِمَى التجديد لا يكون إلا بهَدْم ما تعارف عليه المجتمع من قِيَم، واعتقد أن ذُيُوع الصّيت لا يكون إلا بالاستهزاء بعمائم الرجال، وتنقُّص أعلام حضارتنا!!

للّهَ أرواحُنَا المعذّبة!! كيف صارتْ تحتمل هذا اللغو؟! ولا أشدّ للضدّ هُونًا من مصاحبة الضدّ !!

لكنّ الله كتب علينا - ولا رادّ لما كتب - أن يُزاحِمَ هؤلاء مناكبَنا في دروب الحياة، أنْ يخرج علينا بين الفينة والأخرى - عبر وسائل الإعلام التي أصبحت موطئًا سهلًا لكلّ من هبّ ودبّ - مَنْ عَمِيَ قلبه، وانسدّتْ مسالكُ بصيرته، وإذا فتّشتَ في عقله فلن تجد إلا الإسفاف والابتذال، يتكلمون فيُؤْذون أسماعنا، ويُلوّثون أرواحنا؛ ذلك لأنهم أكلوا من رِمَم الغرب وجيَفهم زمنًا طويلًا، ثم جاؤوا يتقيّؤون ما في بطونهم؛ فأتَوْا بمُسْتبشَع القول، ومَرْذول الكلام!!

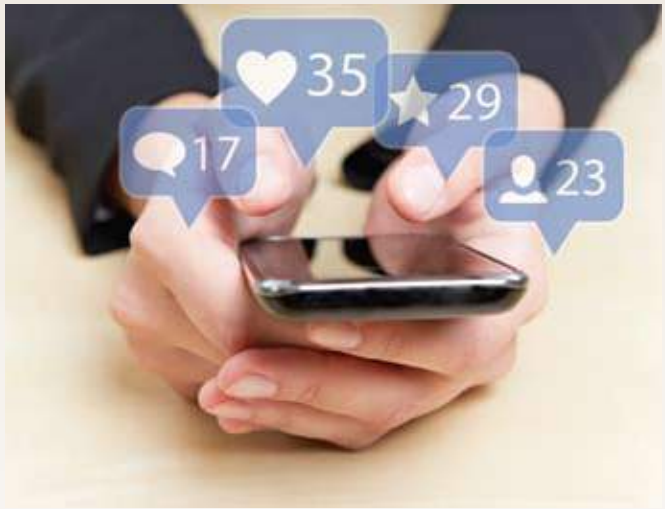

وإذا أمعن المرءُ النظرَ في هذه الصواعق المرسَلة على حصوننا، وجدها خارجة عن دائرة البحث العلمي الجادّ، ولا تعدو أن تكون سهامًا طائشةً من حاطب ليل أعمى.

لكنّ مَكْمَنَ الخطورة أن ينتظم في سلْك هؤلاء المراهقين بعضُ الأتباع، من الأغرار المخدوعين بهذه المقولات المبهرَجة، المحوّلة عن مواضعها، المجتزَأة من سياقاتها، المغلوطة فهمًا وتأويلًا، الخطورةُ أن ينطلي هذا الغثاءُ على مَنْ يَحْسب الوَرَمَ شَحْمًا، وأن يجد أرضًا خصبة في عقول الحمقى !!

وقد تتزيّا الحداثة في ثوب العلمانية تارة، أو في ثوب الليبرالية تارة أخرى، محمّلة بأفكار أيدولوجية تصادم ثقافتنا، ولا غرو أن وجدنا بعض مُتبنّي فكر الحداثة في مطلع القرن العشرين يدعون إلى نبذ العربية، والكتابة باللهجات العامية، ورأينا بعضهم يتهجّم على ثوابت تراثنا وأصول ثقافتنا.

وقد جرّبنا هؤلاء مرارًا، فإذا هم يهيمون في كل واد، تارةً في وادي الوطنية، يتاجرون بالحريّة والشعارات الرنّانة، وتارةً أخرى في وادي الفكر، يتاجرون بالعلم والثقافة.

وحين تخلو مقولاتهم من حديث الوطنية، وينضب عطاؤهم الثقافي - يطفح كلامهم بثَلْب المقدّس الدينيّ، ولَيّ أعناق نصوصه تأويلًا وانحرافًا، أليس عجيبًا حقًّا أن يظهروا تارة في ثياب الوطنيين الأحرار، فإذا خَلَقَتْ، لبسوا ثيابَ المفكّرين ؟!!

إنّ التافه الفارغ الذي تَبْهَره أضواءُ الإعلام، ويأخذه خُلّبُ الشُّهْرة لا يعرف إلا طريقين: إما تحطيم المقدّسات، وإما المتاجرة بالكلام البرّاق، وبهما - أي: الدين والوطنية - تاجر فرعونُ قديمًا؛ فقال عن سيدنا موسى - عليه السلام - : «إني أخافُ أن يُبدّل دينَكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد» !!

وقد رأينا هؤلاء حين مارسوا النضال، لم يمارسوه إلا أمام مَنْ لا حيلة له، ولا أذًى يُتوقّع أن يلحقهم منه !!

يلبسون مُسُوحَ الشجاعة والإقدام عند الجريح المنكسر، ثم يفرُّون حين يرون أن ضريبةً ما ستلحقهم عند المواجهة، فيَقْنَعون بأن يكونوا أحْلاس بيوتهم، متوارين خلف ما يكتبون؟!!

ورأيناهم أيضًا وهم يرقصون لمن بيده السّوْط، ويُغَنّون

للمستبدّ الطاغية، يلبسون لكل وقت ثيابه، ويأكلون على كل مائدة !!

وبضاعة مراهقي الحداثة دائمًا النقد، لا يملكون غيره، ولا ينقدون إلا الثوابت والمقدّسات، وعينُ الناقد في أغلب أحوالها عوراء، ترى جانبًا واحدًا، وتغضي الطرف عن جوانب كثيرة.

إن بعث حضارتنا التي نتطلّع إليها لا يقوم على النقد مجرّدًا، بل مصحوبًا بالإضافة والإكمال، جنبًا إلى جنب، والنقد العلمي الذي غايتُه التقويم والتهذيب أمرٌ مهمٌ ومطلوبٌ، لكنه غير كافٍ وحده.

وعندي أن القادر على النقد هو من باب أولَى قادرٌ على رأب ما يراه من نقص، وقادرٌ على الإبداع والتجديد والتطوير.

ولا شكّ أنّ من السهولة - بمكان - أن ينقد المرءُ مسألةً علمية ما، أو يعترض على عالم ما، لكن من الصعوبة أن يكتشف علمًا خبيئًا، أو يقع على مسألة دفينة يحقّ له أن يفخر بها قائلًا: إنني بهذه المسألة أكملتُ الصرحَ الذي أنفق دونه أجدادُنا الغالي والنفيس، وبذلوا له المُهَج.

وبضاعة نقد ثوابتنا ليستْ إلا ترديدًا لمقالات أذكى نارَها المستشرقون، ثم خلفَ من بعدهم خَلْفٌ ساروا في ركابهم، وجُلُّهم من المستغربين من بني جلدتنا. وسوق النقد - وإن كانت في ظاهرها رائجة - إلا أنها - في حقيقتها - كاسدة؛ لأنها قائمة على الغش والتلفيق، وإنفاق السلعة بالكذب والمراوغة.

ومعلومٌ أن الحداثة حين نشأتْ في أوربا كانت تعني كسر الثوابت، ومخالفة ما هو متعارف عليه، وانتهاك حرمة التقاليد الفنية المقررة، وكان هذا التطور في مسيرتها امتدادًا تاريخيًّا أعقب ردّ الفعل العنيف ضد سيطرة الكنيسة على كل مفاصل الحياة؛ ومن هنا جاءتْ الحداثة مفعمةً بالتمرُّد على كل ما هو قديم، وتجاوُز كل ما هو ثابت وأصيل، ولا غرو إذن أن نرى حداثيي الغرب قد خرجوا على تعاليم المسيحية، بحجة التطوير والتجديد.

ثم تطور الفكر الحداثي الغربي حتى شمل كل مناحي الحياة، وانطلقت أطروحاتهم ومناهجهم الفكرية والثقافية والبحثية معبرة عنه، متلمسة خطاه، متشبّعة بوهجه.

ثم إن كثيرًا من الباحثين العرب راحوا ينقلون هذه المناهج الغربية الحداثية، ويطبقونها على علومنا التي تختلف روحًا وثقافة وخصائص عن العلوم الغربية.

ومن هنا حصلت القطيعة عندنا بين هذه العلوم المتأثرة بالفكر الحداثي وبين العقل العربي، ومن أبرز إفرازات هذا التأثر القطيعةُ التي نجدها بين الشعراء الحداثيين وجمهورهم؛ ذلك أن تعاطي هؤلاء الشعراء الأدبَ من منظور غربيّ باعَدَ بين أدبهم والذائقة العربية التي تتلقّاه!!

وهي النتيجةُ نفسها التي مُنِيَ بها نُقّادُ الأدب الذين استوردوا المناهج الغربية، وراحوا يطبّقونها على آدابنا، وهو المحصول نفسُه الذي جناه المغرمون بالنظريات اللغوية الحديثة حين طبّقوها على العربية، كلُّ هؤلاء فقدوا جمهورهم، وصاروا في واد، والناسُ حولهم في واد آخر !!

ومن العجيب أن كثيرًا من الباحثين الذين يُسبّحون بحمد هذه المناهج الغربية - إذا أعطيتَه جملةً ليقرأها قراءة صحيحةً ما أقام ألفاظها على الجادّة !!

كل ما يفعله هؤلاء المغرمون بكل ما هو وافد على ثقافتنا أنهم يأخذون قُبعة (مايكل) ليضعوها قَسْرًا على رأس (زيد).

والسؤال هنا: هل من المجدي حقًّا أن تُدرس علومنا وفق نظريات غربية تختلف عنها اختلافًا جوهريًّا في النشأة والروح والغاية والإجراء ؟!!

هل بإمكان المناهج اللغوية الغربية الحديثة الوفاءُ بغايات علومنا من تشكيل هُوية الأمة، وخدمة الشريعة، وحفظ العربية، وتربية النشء، وبناء العقل، وتنمية الذائقة الخاصّة؟!

والحقّ أن هذا الفكر الحداثي المصادم لثوابتنا وروح حضارتنا ليس له مرجعية تاريخية تؤيّده، أو جذور عريقة يستند عليها، ولا يعتمد خطابه إلا على قوة الدعم الخارجي، بالدعاية له، وتغطية ظهوره، أو على القوة الداخلية لأنظمة الحكم التي يسيطر عليها العلمانيون والليبراليون.

ومن جهة أخرى فإن هذه الأفكار الحداثية في مجملها تفتقد إلى تماسُك قواعدها، وقوة أدلتها، كما تفتقد إلى الظهير الشعبي المجتمعي الذي يؤمن بها، يضاف إلى ذلك أنها ذات أفكار مادية نفعية تخلو من الروح والقيم الجميلة.

وحين وجد هؤلاء الحداثيون هذه الثغرات التي تهدّد وجودهم وامتدادهم الفكري، لجأوا إلى التراث الإسلامي محاولين تفسيره من وجهة نظرهم، وباحثين فيه عن منطلقات فكرية تؤيد توجُّههم، وهذا يعني أن علاقتهم بهذا التراث علاقة استغلال لا استلهام.

والحقّ أن هذا الصنيع تبديدٌ لطاقاتنا، ومضيعةٌ لأوقاتنا، دون فائدة ملموسة لمشروعنا الحضاري الذي نطمح إليه، ودليلٌ على عدم البرّ بهذا التراث العظيم، وعلامةٌ على عدم الإحساس بالمسؤولية الملقاة على كواهلنا.

ولا جدال أنّ نقل الحداثة الغربية إلى مجتمعنا الشرقي ينبغي أن يكون وفق ضوابط تلائم روح تراثنا وخصائص ثقافتنا؛ فإذا كانت الحداثة تعني التجديد في مجالات العلم، والتحديث في مناحي الحياة، فأهلًا بها، وإذا كانت تعني تجديد النظر إلى القديم دون رفض ثوابتنا وتجاوزها فأهلًا بها، وإذا كانت تعني الإفادة من منجزات العصر المعرفية والتقنية في خدمة العلم فأهلًا بها، وإذا كانت تعني إسقاط علم على علم، أو إفادة علم من مجموعة علوم أخرى فأهلًا بها، وإذا كانت تعني هدم ثقافتنا وأسس حضارتنا ومعتقدنا، وطمس معالم هُويتنا، وإذابة روح حضارتنا - فلا أهلًا بها.

إننا لن نتقدّم خطوة إلى الأمام، إلا إذا وصلنا الماضي بالحاضر والمستقبل في حلقات متعاقبة متعانقة، وتوّجَ ذلك وزَيّنه برُّ الأبناء بالآباء، وحفظُ الأحفادِ لميراث الأجداد، كما يحفظ الإنسان الأمانة بين عينيه، ويؤدّيها خير أداء.

الهوية والغيرية

يكتسي موضوع الصلة بين الهوية والغيرية أهمية خاصة في وقتنا الحاضر، وذلك لأسباب كثيرة، لعل أهمها أننا في الوقت الذي نعترف بأننا نعيش في زمن العولمة حيث التواصل بين البشر قد بلغ ذروته في هذا الوقت بالذات نشاهد بناء جدران عازلة بين المجتمعات، وسن قوانين تمييزية، وأكثر من هذا وذاك، نلاحظ تعزيزا لافتا للذهنية الإقصائية تقودها بعض الحركات الشعبوية. من هنا نرى ضرورة الوقوف عند مفهوم الغيرية في علاقته بالهوية.

د. الزواوي بغوره

تعتبر الغيرية من الألفاظ القديمة التي استعملت للدلالة على المعاني المنطقية والميتافيزيقية مثلها في ذلك مثل لفظ الهوية. فإذا رجعنا، على سبيل المثال، إلى موسوعة: التعريفات، للجرجاني، فإننا نجده قد عرّفها بأنها: «كل شيء بالقياس إلى آخر إما عين وإما غير ». وأن (غير) يستعمل في مقابل العين.(ص 307). وعبّر عن هذا المعنى ابن رشد في كتابه: تلخيص

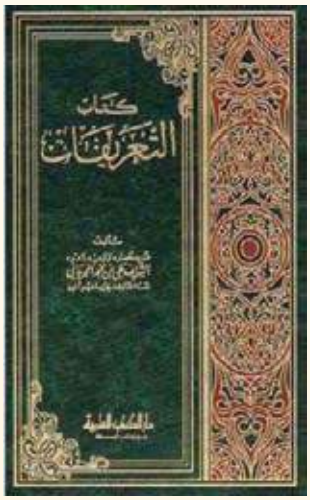

الغير «المتوحش الطيب»، والذي أسست حوله علوم عديدة كالانثربولوجيا والاستشراق وفقه اللغة المقارن

ما بعد الطبيعة، بقوله: «إن الذي يقابل الواحد من جهة ما هو هي الغيرية». (ص 108). وهذا المعنى نقرأه في المعاجم العربية الحديثة، ومنها : المعجم الفلسفي، الصادر عن مجمع اللغة العربية في القاهرة عام 1979، حيث حدد الغيرية بما هي : «صفة ما هو غير، وتقابل الهوية».(ص134).

ولكن هذا التحديد الاصطلاحي الأولي، لا يعني أن القدماء لم يعرفوا الغير بما

هو آخر، فقد تحدث اليونان عن البرابرة، وأشار العرب والمسلمون إلى العجم، وأهل الكتاب، وأهل الذمة، ودار الكفر في مقابل دار الإيمان، وترجموا علوم الأوائل، ولكنهم مع ذلك لم يخصصوا الغير/ الآخر بالدراسة والبحث والتقصي كما فعل الفكر الحديث منذ نهاية القرن الثامن عشر، حيث شرع في عملية اكتشاف الآخر، واصطلح عليها تسمية مريبة، ألا وهي: المتوحش الطيب (le bon sauvage)، وأسس حول هذا الموضوع علوما كثيرة على رأسها الأنثروبولوجيا، وعلم الاستشراق، وفقه اللغة المقارن وهي علوم لازمت الحركة الاستعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولا تزال العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى اليوم تجتهد في فهم الغير، سواء تعلق الأمر بالغير الداخلي أو الغير الخارجي.

من هنا نستطيع القول: المعنى المنطقي والميتافيزيقي للغير والغيرية، سيغتني بمعاني جديدة نقرأها في الموسوعات العربية الحديثة التي تأثرت بالموسوعات الغربية الحديثة، وبنصوص الفلاسفة المحدثين والمعاصرين.

يشهد على ذلك، على سبيل المثال، ما كتبه كميل الحاج في: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، الصادرة عام 2000، حيث حدد الغيرية بـ: «الخدمة الإيثارية التي تقدم للآخرين، أو هي الاستعداد للتضحية بمصالح المرء الخاصة من أجل مصالح الآخرين، وهي ضد الأنانية». ولقد استقى هذا

الإيثار مقابل الأنانية والهوية مقابل الغيرية، والأول يتضمن أخلاقاً، والآخر يتضمن اختلافاً

المعنى الأخلاقي من الكلمة الفرنسية (altruisme) وليس من كلمة (altérité). وينسب اللفظ الأول إلى الفيلسوف الوضعي الفرنسي وعالم الاجتماع في العصر الحديث اوغست كونت الذي استعمله للدلالة على الاهتمام المجرد من كل مصلحة شخصية في سبيل تأمين مصلحة الغير، وهو ما يقابله في العربية لفظ الإيثار الذي يعني التفضيل والكرم. وعبر عنه القرآن الكريم خير تعبير عندما قال سبحانه: «والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» (سورة الحشر، الآية 9).

لذا نستطيع القول، إن الإيثار يستعمل في مقابل الأنانية، في حين أن الغيرية تستعمل في مقابل الهوية. وإذا كان الإيثار يتضمن قيما أخلاقية توقف عندها القدماء والمحدثون على حد سواء، فإن الغيرية بما هي إحالة إلى الغير والآخر، تماثل الهوية في الاشتقاق العربي بحكم أنها تفيد الإشارة إلى هو. وقد اقتصر استعمالهما في القديم على المعاني المنطقية والميتافيزيقية، ولم يهتم الفكر القديم بالآخر إلا من حيث التصنيف والترتيب.

وفي هذا السياق، يرى بعض الدارسين أن مصطلح الغيرية يُشكل نقطة فاصلة في تاريخ الفلسفة، لأنه قسمها إلى مرحلتين أساسيتين: المرحلة القديمة التي تتمركز حول الأنا أو ذات النفس (le même)، والمرحلة الحديثة التي تبدأ مع هيغل الذي صاغ مفهوم الغيرية من خلال مفهومه الجديد للعلاقة بين السيد والعبد، والذي اهتمت به العلوم الإنسانية والاجتماعية، وركّزت عليه بشكل خاص الفلسفة الاجتماعية، وقدمت حوله نظريات مختلفة.

ولا يتسع المقام هنا، للنظر في الأسباب والطرق والآفاق أو البدائل التي طرحتها الغيرية، وإنما حسبنا أن نتوقف عند بعض المعاني العامة، ومن أهمها:

أولاً: إن حالة التنوع والتعدد والاختلاف تطبع الاجتماع البشري سواء تعلق الأمر بمجتمع معين، أو بمختلف المجتمعات الإنسانية. لذا لم تعد الغيرية تشير إلى الغير الخارجي الذي يظهر في الغريب، والأجنبي، والمهاجر، والبربري، والمختلف عنا في اللغة واللون والدين والعرق، وإنما أصبحت الغيرية تفيد الغير الداخلي المتمثل في الأقليات، والمهمش، والمستبعد، وذوي الاحتياجات الخاصة.

ثانيا: تتعارض الهوية مع الغيرية التي تفرض بالضرورة التنوع والتعدد وما يتضمنه من اختلاف. ولذا، فإن الغيرية بما هي حد ملازم للهوية، تشتمل على مستويات من القطيعة والتهديد الذي يصيب الاندماج الاجتماعي. ومع ذلك، فإننا نجد في الفكر المعاصر السياسي والاجتماعي والفلسفي من يرى أن الغيرية تمثل شرطا لازما لانبثاق الهوية. ولقد بينت الأبحاث الانثربولوجية والاجتماعية، وبخاصة علم النفس الاجتماعي أن الغير يسبق العين ويسمح بتشكيل الهوية. ويتدخل في تشكيل الذات/الهوية من خلال مختلف الأشكال المتمثلة في الثنائيات التالية: المماثل/المختلف، الأصلي/الغريب، القريب/البعيد، الصديق/العدو، السوي/المرضي، الأقلية/الأغلبية،،،الخ. وتعتبر أبحاث جورج هربرت ميد(1893-1931)، وبخاصة ما جاء في كتابيه: فلسفة الحاضر، و: فلسفة الفعل» متميزة في هذا المجال، لأنها كشفت أن تجربة الذات/الهوية في العالم تتضمن الآخر أو الغير بمختلف أشكاله سواء تعلق الأمر بالأشياء، أو بالحيوان، أو بالأشخاص، ولكن مع ذلك، فإن علاقتنا بالأشخاص الأغيار هي التي تسمح بظهور هويتنا، وذلك بوساطة اللغة. وأن وعي الذات ناتج عن التبادل مع الآخرين. وهذا يعني أن الوعي بالهوية الشخصية لا ينفصل عن الغيرية والاختلاف. وبحسب الانثربولوجيين، فإن الاختلاف الأول الذي يشكل الهوية

الشخصية هو الاختلاف بين الجنسين. ويكتسي هذا الأساس الجنسي قيمة مادية ورمزية في الوقت نفسه، وذلك بحكم أن العلاقة بين الذات والآخر، والعين والغير في هذه الحالة تحكمها مؤسسات وأنظمة من التمثيل الرمزي التي تترجمها.

ثالثا: تطرح الغيرية مشكلة مركزية تتمثل في معرفة الغير. ويعتبر تاريخ الانثربولوجية الغربية، بمثابة السجل الحافل بالمناقشات حول طبيعة هذه المعرفة، وأدواتها ومناهجها، ونماذجها، وأهدافها، وذلك بحكم أن كل معرفة هي عملية بناء، تتضمن إسقاطات، وأحكاماً مسبقة، ودرجات متفاوتة في انطباقها على واقع وحقيقة الغير. ولقد انتشرت في فترة من فترات المعرفة الغربية للغير صورة (المعرفة المراة) التي تعكس الغير بحسب مقتضيات وتصورات واحتياجات ومصالح الهوية. وهو ما يعني أن بعض أشكال معرفة الغير ليست أكثر من ترجمة للهوية التي تعززت بالنظرة المركزية الأوربية، وبالأطروحات العنصرية.

رابعا: إذا كانت الانثربولوجية ومعها العلوم الإنسانية والاجتماعية قد شرعت في عمليات نقدية عديدة، مثلما فعلت على سبيل المثال وليس الحصر، المدرسة البنيوية، فإن ما يجب التأكيد عليه هو أن الغيرية لا تواجه المشكلة المعرفية فقط، وإنما تواجه مشكلات أخلاقية وسياسية واجتماعية، تعمل

الترجمة فضاء معرفي تلتقي فيه الهوية بالغيرية

الغيرية حدٌّ ملازم للهوية وتشتمل على مستويات من القطيعة والتهديد الذي يصيب الاندماج الاجتماعي

الفلسفة الاجتماعية المعاصرة على أن تطرحها تحت مسمى الاعتراف. وهذا يعني أن الغير المشكّل للهوية، لا يجب الاكتفاء بمعرفته على حقيقته، وإنما يجب الاعتراف بحقوقه. ولقد تحولت إشكالية الهوية والغيرية إلى موضوع مركزي في الفلسفة الاجتماعية وفي العلوم الاجتماعية والإنسانية، وذلك بالنظر إلى ما تعرفه مجتمعاتنا المعاصرة من نضالات وصراعات تخوضها الأقليات بمختلف أشكالها سواء تعلق الأمر بالنساء، أو الأقليات العرقية والثقافية، أو المهاجرين، أو ذوي الاحتياجات الخاصة، وذلك بقصد الاعتراف بهوياتهم الخاصة المغايرة للهوية السائدة والمهيمنة. وهو ما ينتصر له دعاة التعددية الثقافية التي أرسى دعائمها النظرية فلاسفة كثيرون منهم الفيلسوف تشارلز تايلور وويل كيملكا في كندا، وبول ريكور وفرانك فايشباخ في فرنسا، ونانسي فريزر في الولايات المتحدة الامريكية، واكسيل هنيث في ألمانيا.

خامسا: مما لا شك فيه أن نظريات الاعتراف بالتعددية الثقافية تعد إسهاما متميزا ودالا على فهم العلاقة الجديدة بين الهوية والغيرية، ولكنها تطرح مشكلات نظرية وعملية ليس أقلها فكرة الحق بين الطرح الكوني والخاص أو مسألة وحدة المجتمع ودرجات اندماجه ومخاطر تمزقه، ولكن مع ذلك، فإن ما يجب التأكيد عليه هو أن سياسات الإقصاء ما عادت مجدية، وأن الديمقراطية بما هي تسيير للمتعدد مطالبة بالاعتراف بالتعدد الذي يطبع مجتمعاتنا المعاصرة.

سادسا وأخيرا، إذا كان هذا الطرح يتميز بطابعه السياسي والاجتماعي، فإن ما يجب الإشارة إليه هو أن للغيرية مداخل كثيرة ومتعددة، لعل أهمها وأنفعها لنا، هو المدخل المتمثل في الترجمة بما هي محاولة لفهم الغير، والتعرف عليه، ومحاورته ولو بطريقة غير مباشرة. وبهذا المعنى، يمكنني القول إن الترجمة فضاء معرفي تلتقي فيه الهوية أو الذات أو الأنا بغيرها وآخَرِها، وتمثل الخطوة الأولى نحو الانفتاح على الآخر والغير، وعلى استقباله واستضافته في اختلافه وغيريته.

بصمات في تاريخ الكويت

شهداء الكويت بطولاتهم وتضحياتهم

إصدار جديد

مكتب الشهيد - الديوان الأميري - ضاحية مبارك العبدالله - قطعة 7 - شارع 5
ص.ب: 28717 الصفاة رمز بريدي 13158 الكويت

martyrskuwait 1888101 www.martyr.com.kw

أميرة أشكناني

احدى الصور المشاركة بمسابقة الشهيد الثقافية
السادسة عشرة - للرسم التشكيلي ٢٠١٨